زبدة الحقائق

عين القضاة الهمداني
رحمة الله عليه

بسم اللّه الرحـمن الرحيم

أحمدُ اللهَ[1] على نعم متواصلة أرعى أطراف النهار رياضها، ومنح مترادفة أرد آناء الليل حياضها، وأصلِّي على سيِّد ولد آدم وخير من زيَّن بجماله العالم، محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم صاحب شريعة الإسلام وداعي الثقلين إلى دار السلام، وعلى آله المهتدين بأنواره وأصحابه المقتدين بآثاره.

وبعد؛ فهذه اللمعة موسومة بزبدة الحقائق مشتملة على كشف الغطاء عن الأصول الثلاثة التي تعبد بها [2]كافَّة الخلائق، وقد أودعتها مائة فصل، ووشحتها بنكت دقيقة من كلِّ أصلٍ. وهي عدة كاملة للطالبين في أصول الدين، وغنية وافية بمقاصد السالكين من علم اليقين إلى عين اليقين. وقد ذكرت في الرسالة العلائيَّة التي عملتها في مذهب السلف الصالحين رضي الله عنهم وعمَّن سلك طريقهم أجمعين ما لا يستغني عن اعتقاده العوام في تلك الأصول، وأمَّا الذي يشفي غليل الخواص فقد أعربت عن بيانه في هذه الفصول.

وقد استخرت الله عزَّ وجلَّ في إملائها فسلَّط عليَّ خواطر لم أجد بدا من إمضائها، ولو أنَّ الخيرة كانت في ذلك لما انتهج بي القدر هذه المسالك. فما استخار عبدٌ في أمرٍ من أمور الدين والدنيا إلا يُسِّرت له فيه أسبابُ الوصول إلى درجته العليا.

ولقد كان إخواني يتوقَّعون ذلك منِّي إذ كنت مشتغلا بتحصيل العلم واستفادته وقد أكببت طول الليل والنهار على استزادته. ثمَّ انقطع طمعهم عن ذلك بعدما أضربت عن طلب العلم صفحا وطويت دون الإقبال عليه كشحا. فصارت نفرة القلب عنه إلى حدٍّ كنت أستبعد معه من نفسي أن أتفرَّغ يومًا لتمهيد تأليفٍ أو أشتغل بتأسيس تصنيف. وكان القلب في لجَّة بحر لا ساحلَ له

---

١ ب، ش: الحمد لله

٢ ب: باعتقادها.

وقد غرق فيه الأوَّلون والآخرون، وليس لهم معتصم يعول عليه ولا متمسّك يلجئ إليه. ثمَّ إنِّي رأيت بعض المخلصين من أخواني تتشوَّق[٣] نفسه إلى الإحاطة بمنتهى نظر العلماء في أصول الدين وموقف أقدام السالكين في طريق البراهين.

٥ فلمَّا رأيته محتاجًا في طريقه الذي هو بصدده إليه وقفت بضع أيَّام من العمر عليه. وقد تشوَّشت عليَّ أحوالُ القلب بسببه، ولكن وطن نفسي على احتمال ذلك صدق طلبه. على أنِّي لما استخرتُ اللهَ عزَّ وجلَّ قطعَ الخواطر الدافعة عنِّي بتقديره وسخَّرني لهذا الأمر فلم أجدْ مدفعًا لتسخيره. ثمَّ كان القلب يطمئنُّ إلى قوله صلَّى الله عليه وسلَّم «ما خاب من استخار،[٤] ولا ندم من ١٠ استشار.»[٥] فابتدأت بإملاء هذه الفصول وقد قدَّمت عليها مقدِّمةً تتضمَّن بيانَ الباعث الأصلي على إملائها، وأختمها بخاتمة يشتمل [٦]على ذكر الوظائف التي لا بدَّ للناظر في هذا الكاتب من أنْ تكونَ موجودةً فيه، حتى تعظم فائدته من مطالعته. والله عزَّ وجلَّ ينفع به كلُّ من ينظر فيه، ويؤيِّد باطنه بصفاء يستوعب به معناه ويستوفيه. فهو المستمسَك بعروة أنعامه والمستعان في كلِّ أمرٍ على كماله ١٥ وإتمامه وهو حسبي ونعم الوكيل.

---

٣ ش: تشوق.
٤ ط- ولا ندم من استشار.
٥ رواه الطبراني في الأوسط [٦/٣٦٥]
٦ ب: يتضمَّن.

مقدِّمة

في بيان الباعث الأصلي على إملاء هذه اللمعة

اعلمْ أنَّ الذي دعاني إلى ذلك غرضان مهمَّان:

الغرض الأول:

إنَّ جماعةً من إخواني، وفَّقني الله للقيام بحقوق صحبتهم وصداقتهم ونهض بي لأداء ما يجب عليَّ في رفاقتهم، كانوا يقترحون عليَّ أنْ أملي فصولا أذكر فيها ما ينتهي إليه نظر العقول في العلم في ذات الله عزَّ وجلَّ وصفاته والإيمان بحقيقة النبوَّة وباليوم الآخر. وأنْ[7] أنظِّمَ هذه المعاني في سلك ألفاظٍ يروق الفصيح إيجازها ويروع الناظر المستقلّ[8] بالنظر إعجازها. وكانت عوائق الزمان وصروف الحدثان تشغلني عن القيام بما حامت رغباتهم عليه وتوجَّهت هممهم إليه. ثمَّ لما رأيتهم يحتاجون إلى ذلك غاية الاحتياج خصوصًا في الإيمان بحقيقة النبوَّة وحقيقة الصفات الموصوف بها فاطر السماوات والأرض رأيت صرف[9] العناية إلى بيان ذلك من أهم الأمور.

ولقد ذكرت في النبوَّة وما يتعلَّق بها من المقدمات العلمية في رسالتي الموسومة «بغاية البحث عن معنى البعث» ما يشفي غليل الطالب المستفيد ويكفي الناظر المستبد بنظره السديد. ولكن لما كان الإيمان بحقيقة النبوَّة إذ ذاك مستندا إلى علم اليقين ومتلقى من طرق البراهين، وحاصل ما يدركه[10] العقل من حقيقة النبوَّة يرجع إلى إثبات وجود شيء لنبي بطريق جملي من غير إدراك شيء من حقيقة ذلك الشيء وماهيته. وهذا الإيمان بعيد جدًّا من الإيمان الذي يحصل لصاحب الذوق بحقيقة النبوَّة. ويكاد يكون التصديق المستفاد من العلم بحقيقة النبوَّة شبيهًا بتصديق يحصل لمن لا ذوقَ له في الشعر بوجود شيء مجمل، فإنَّ من لم يرزق ذوق الشعر قد يتمكَّن أيضًا من تحصيل اعتقاد ما بوجود شيء لصاحب الذوق، ولكن يكون ذلك الاعتقاد بعيدًا عن حقيقة الخاصية التي يختصُّ بها صاحب الذوق.

---

٧ ش+ في.
٨ ب: المشتغل.
٩ ش: صروف.
١٠ ب: يذكره.

وكنت إذ أمليت تلك[١١] الرسالة ابن احدى وعشرين سنة، وأنا الآن ابن أربع وعشرين سنة. ولقد أفاضت عليَّ الرحمةُ الأزليَّةُ في هذه السنين الثلاث من أنواع المعارف الغيبيَّة ونفائس الأحوال الكشفيَّة ما يتعذَّر عليَّ شرحُه ووصفُه، وأكثر ذلك ممَّا[١٢] يستحيل التعبير عنه في عالم المتناطقين بالحروف والأصوات. وأنا أجتهد غايةَ الاجتهاد أنْ أذكرَ منها طرفًا في هذه الفصول بأحسن إشارة وأرشق عبارة. والحقُّ الصريح أنَّ أكثرَ الكلمات المذكورة في هذا الكتاب متشابهةٌ غايةَ التشابه، فمهما رأيت فيها لفظًا لم يؤدِّ حقَّ المعنى المسبوك في قالبه فلا تبسطنَّ لسان الاعتراض؛ فلي في ذلك عذارن واضحان:

أحدهما: أنِّي كنت من ذكر المعاني في شغل شاغل عن تنقيح الألفاظ فلم أوردها على أحسن وجوه الإيراد؛ مع أنَّ ذكر تلك المعاني بعبارات تطابقها من غير تشابه فيها يكاد يكون محالا، لا بل هو كذلك قطعًا ويقينًا.

والثاني: أنِّي أمليت هذه الفصول لقومٍ لا يشغلهم تشابه الألفاظ عن درك حقائق المعاني فمن كثرة ممارستهم للحقائق العقلية صاروا بحيث لا يقطع عليهم[١٣] طريق الأنس بالملكوت الفهم مع عالم الملك.

الغرض الثاني:

إنَّ الطريقَ إلى الله عزَّ جلَّ وعزَّ، وسلوكُه صعبٌ، وفيه ما لا يحصى من البحار المغرقة والنيران المحرقة والجبال الشواهق والفلوات المملوءة بالصواعق، والعقبات[١٤] التي تستعصي على الأعين ويمتنع وصفُها على الألسن، وكلُّ واحدٍ من السالكين يظنُّ بنفسه أنَّه من الواصلين. وقد عمَّ الضلالُ جميعَ الخلق إلا من عصمَه اللهُ بفضله وكرمه حتى اهتدى إلى الصراط المستقيم والمنهج القويم. والله عزَّ وجلَّ يعيذنا من الإغترار بلامع السراب في المسارب يعصمنا في الطريق عن القواطع المضلَّة حتى يرد بنا أعذب المشارب، إنَّه على كلِّ شيء قدير.

---

١١ ش: هذه.
١٢ ش: ما.
١٣ ش: عنهم.
١٤ ش: العقاب.

أجل وممَّا ضلَّ فيه فحول العلماء الحذاق من أهل النظر حكمهم بأنَّ حصول العلم بذات الله وصفاته من طريق التعلُّم، هو غاية السعادات ومنتهى الدرجات، وهذا جهل عظيم قد استولى على الأكثرين من المتبحِّرين في العلم والواصلين فيه، فضلا عمَّنْ هو بعد في السلوك. ومن ظنَّ أنَّ العلم بذات المعشوق وصفاته ٥ عين الوصول إليه فقد سحب الضلال ذيله عليه، ومن صار إلى أنَّ الوقوع في مخلب السبع الضاري وأنَّ العلم بالوقوع واحد، فهو في مهواة بعيدة من الجهل، وهذا مثل هؤلاء القوم في اغترارهم بظنونهم الفاسدة وآرائهم المتناقضة على أنَّ الوصولَ إلى ما يدعونه من العلم المشار إليه عزيز جدًّا إذ لا يتَّفق ذلك إلا على الندور لبعض الأشخاص في آحاد الأعصار.

١٠ فلمَّا رأيت الأمر على ذلك ورأيت نفسي ملية بالقيام على حلِّ هذا المشكل وكشف القناع عن وجه الحقِّ فيه، صمَّمت عزمي على إملاءِ هذه الفصول ليتَّخذَها الطالب ذخرًا في طريق العلم ومسالكه حتى يتيسَّر له النجاة من مهالكه. فمن زاحم العلماء بركبته لطلب العلم ولم يعتقد أنَّ وراءَ مقصده مقاصدَ كثيرةً، زلَّ قدمه وكثر ندمه وعظم زَلَـلُه وظهر، حيث لا ينفعه خطؤه وخطله. وهذا لأنَّ ١٥ الغالبَ على من اعتقد ذلك أنَّه إذا وصل إلى مقصده وأحرز في العلم قصب السبق، وقف به الطلب ولم يكن في نفسه تشوُّقًا إلى ما وراءَ ذلك، وهذا الظنّ من السموم المهلكة لمن يسلك طريق العلم، ومن لم يجرِّبْ ذلك حقَّ التجربة فلا يُتصوَّر أن يعرف ما أقوله.

ولقد سلكت هذا الطريق ونظرت في غثّ العلم وسمينه، وطالعت منه كلِّ ضارٍّ ٢٠ ونافعٍ حتى حصّلت ما كان يهمُّني فيما كنت بصدده، وأمَّا ما كان قليل الغناء فيه فما التفت إليه ولا عرّجت في الطريق عليه علما بأنَّ العلم كثير والعمر قصير، فتضييعه في تحصيل ما لا تعظم فائدته حماقة. وكان عذري إذ[١٥] خضت كلّ مخاض في العلم واضحًا

١٥ شن: حين.

فالغريق يتمسَّك بكلِّ شيء رجاءً للخلاص[١٦]، وقد كنت على شفا حفرة من النار لولا أنَّ الله أنقذني منها بفضله وكرمه. وكان السبب في ذلك أنِّي كنت أطالع كتب الكلام طلبًا للارتفاع عن حضيض التقليد إلى ذروة البصيرة، فلم أظفر منها بمقصود. وتشوَّشت علي قواعد المذهب حتى تردَّيت في ورطات لا يمكن حكايتها في هذه اللمعة ولا فائدة في سماعها للأكثرين، فإنَّه يولد ضررًا عظيمًا للأفهام القاصرة والقلوب الضعيفة، فتحيَّرت من أمري تحيُّرًا تنغص[١٧] معه العيش حتى دلَّني دليل المتحيِّرين على الطريق، وأمدَّني كرمه بالمعونة والتوفيق. وعلى الجملة فبما أنعشني من سقطتي بعد فضل الله تعالى إلا مطالعة كتب الشيخ الإمام حجَّة الإسلام أبي حامد محمَّد بن محمَّد بن محمَّد الغزَّالي رضي الله عنه وأرضاه. فكنت أتصفَّحها قريبًا من أربع سنين ورأيت في هذه المدَّة من الاشتغال بالعلوم عجائب كثيرة ممَّا استقبلني[١٨] في الطريق من الكفر والضلال والحيرة والعماية. وشرح ذلك لا يفي به بيان فإنَّه خارج عن حدِّ الحصر والإحصاء ولا مطمع فيه في طلب الاستقصاء. ثمَّ لما حصلت مقصودي من العلم وظننت أنِّي وصلت، جعلت أنشد لنفسي قول الشاعر:

اِنْزِلْ بِمَنْزِلِ زَيْنَبَ وَرَبَابِ وَارْتَعْ فَهَذَا مَرْتعُ الْأَحْبَابِ[١٩]

فبين أنا أحطُّ رحالي في الثرى وأنيخ المطايا لتترفه عن السير والسرى إذ أخذت عين البصيرة في الانفتاح، ولست أعني بصيرة العقل حتى لا تغتر بخاطرك. وكانت عين البصيرة تنفتح قليلا قليلا، وكنت أقف في أثناء ذلك على القواطع التي كادت تقطع على طريق الطلب لما وراء العلوم. وبقيت في ذلك قريبًا من سنة وأنا بعد لم أقف على حقيقة الواقعة التي وقعت لي في تلك السنة.

---

١٦ ش: الإخلاص.
١٧ خ: تنقّص.
١٨ خ: استنقذني.
١٩ لم نجد قائله فيما لدينا من المراجع، وكلّ شعر لم يتمّ تخريجه فإمّا هو من شعر المؤلّف أو هو ما انفرد به المؤلّف. مح.

حتى أنَّ سيّدي ومولاي الشيخ الإمام الأجلّ سلطان الطريقة وترجمان الحقيقة أبا الفتوح أحمد بن محمَّد بن محمَّد الغزَّالي، متَّع الله بأنفاسه أهلَ الإسلام والعصر وجزاه عنِّي خيرَ جزائه، ساقه التقدير إلى همدان وهي مسقط رأسي، فانكشف لي في خدمته قناع الحيرة عن وجه تلك الواقعة في أقلٍّ من عشرين يومًا، فشاهدت جلية الحال في ذلك. ثمَّ طُولِعت بشيء لم يُبقِ منِّي ومن طلبي لغيره إلا ما شاء الله. وأنا الآن منذ سنين ليس لي شغل إلا طلب الفناء في ذلك الشيء، والله المستعان على إتمام ما ولَّيت وجهي شطره. ولو عُمِّرت عمرَ نوحٍ وأفنيته في هذا الطلب لكان له بعد قليل. ورحم الله أبا فراس حيث يقول:

تَهونُ علينا فِي المعالي نُفُوسُنَا ومنْ خَطَبَ الحَسنَاءَ لمْ يُغلِه المَهْرُ[٢٠]

وكان ذلك الشيء قد طبق الخافقين فلا يقع بصري على شيء إلا يراه فيه:

وجْهُهُ في كُلِ نَاحِيةٍ حيثُ ما قابَلْتُهُ قَمَرٌ

وكلُّ نفَسٍ لا يزيدني استغراقًا في مشاهدته فلا بورك[٢١] لي فيه، ولله دَرُّ أبي الطيب وهذا الشعر لُفاظات[٢٢] فيه:

ترَكْنَا لِأطْرَافِ القِنَا كُلَّ لَذّةٍ فَلَيْسَ لنَا إلا بِهنَّ لِعَابُ[٢٣]
فَغَيْرُ فُؤَادِي لِلْغَوَاني رَمِيّةٌ وغَيرُ بَنَاني لِلزُّجَاجِ رِكَابُ

فالمغبون من لم يجعل أنفاسه أثمان المعالي، ولم يجتهد في طلب العزِّ[٢٤] طول الأيَّام والليالي. ولقد أجاد الموسوي حيث يقول:

---

٢٠ أحد أبيات قصيدة أبي فراس المشهورة التي مطلعها «أراك عصيَّ الدمع شيمتك الصبر..»
٢١ ش: لا بارك الله.
٢٢ ب: ألفاظه.
٢٣ من قيصدة بلغت أبياتها ثلاثا وأربعين بيتًا إلا رواية المؤلّف غير قريب لما في ديوان المتنبّي الذي يقول فيه؛
''تركنا لأطراف القنا كلّ شهوةٍ فليس لنا إلا بهنّ لعابُ''
٢٤ ش: العلم.

إِذَا أَنْا لَمْ أركَبْ إِلَيْهَا مُخاطِرًا وأُعْظِم قَوْلًا دُونَها وقِتالًا
فَهَذا حُسَامِي لِمَ أرق ذُبَابُهُ مَضَاءً وهَذا ذابِلي لِمَ طَالا

وأنا أسأل الله تعالى أنْ يجعلَ لي من التوفيق ساعدًا ومن القضاء[٢٥] الأزلي مساعدًا حتى أملك ناصية سؤلي وأبلغ قاصية مأمول.

ولَقَد تَنَسَّمْتُ الرِّيَاحَ لِحَاجَتِي فَإذا لَهَا مِن رَاحَتَيكِ نَسيمُ
وَلَرُبَّمَا اسْتَيْأَسْتُ ثُمَّ أَقُولُ لا إِنَّ الذي ضَمِنَ النَّجَاحَ كَرِيم[٢٦]

وسأزجى قِلاصي حتى يتعيَّن من أسر الزمان والمكان خلاصي، فأنيخ المطايا في أعزِّ مناخ وأسمو بنفسي إلى مؤاخاة من هو أجلّ مؤاخ:

مُنى إِنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَحسَنَ المُنَى وإِلا فَقَدْ عِشْنَا بِها زَمَنًا رَغَدَا

فالهمم العالية لا تقف بالنفوس الزكيَّة دون الوصول إلى الحضرة المحمَّديَّة.

وإِذَا المطِيُّ بِنَا بَلَغْنَ مُحَمَّدًا فَظُهُورُهُنَّ عَلى الرِجَالِ حَرَامُ
قَرَّبْنَنَا مِنْ خَيرِ مَنْ وَطِئ الثَّرَى فَلَهَا عَلَيْنا حُرمَةٌ وَذِمَامُ[٢٧]

والكلام في أمثال ذلك يطول وأنا أخوض في بيان الأصول وأقول: أهمُّ ما ينبغي أنْ أذكرَ[٢٨] مبتدأ في هذه الفصول بذكره، بعد حمد الله الذي يفتتح كلُّ كتاب بحمده والصلاة على محمَّد رسوله وعبده، تعريفك أنَّ أكثرَ الخلق لا ينتفعون بمطالعة هذا الكتاب حقَّ الانتفاع فإنَّ بيان[٢٩] ذلك مهمٌّ في نفسه، وسأنهج لك في خاتمة هذه الفصول طريقًا إذا سلكته صرت وافيَ الحظِّ من هذا الكتاب.

---

٢٥ ش+ القدر.
٢٦ للشاعر العباسي أبو العتاهية
٢٧ هذه الأبيات لأبي نواس من قصيدة مطلعها: "يا دارُ ما فَعَلَتْ بِكِ الأَيَّام.."
٢٨ ب: أبدأ بذكره.
٢٩ ب- بيان.

الفصل الأوَّل
[أقسام الطالبين للسعادة الأخرويَّة]

اعلمْ أنَّ المصدِّقين بالسعادة الأخرويَّة والطالبين لها أربعة أقسام:

القسم الأول: فريق صدَّقوا بما جاءت به الرسل، فآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ولم يحتاجوا في هذا الإيمان إلى بحث نظري كما جرت به عادة العلماء النظار. وهؤلاء لا يصلح لهم النظر في هذا الكتاب أصلا إذ ليس يحتاج منهم أحد إلى شيء ممَّا ذكر فيه. نعم، يجوز أنْ ينتفعَ به إنْ نظر فيه للاستفادة ولكنَّ النظرَ فيه ليس بمُهمٍّ لأمثاله.

القسم الثاني: فريق من علماء الظاهر سلكوا مسلكًا من البحث غير مرضي عند المحقِّقين، فقلَّدوا جماعة من أرباب المذاهب في مذاهبهم وفي دلائلهم جميعا. وهؤلاء أحسن حالا من القسم الأوَّل ليس لهم حاجة إلى النظر في هذا الكتاب وربَّما لا ينتفعون به إنْ نظروا فيه أيضًا.

القسم الثالث: فريق من العلماء النظار الذين يزعمون أنَّهم لا يقلِّدون في عقائدهم[٣٠] أحدًا من الخلق، وإنَّما يسلكون فيها طريق البحث العقلي والنظر البرهاني؛ وطريقة هؤلاء في طلب العلم أحمد الطرق، إلا أنَّهم إذا قطعوا منازل العلم ظنُّوا أنَّهم وصلوا إلى الكمال الكلِّي فيما هم بصدده. غرور هؤلاء بما حصَّلوه من العلوم النظرية عظيم، فإنَّهم يظنُّون أنَّ تحصيلَ العلم بالله[٣١] وصول إليه، وهو عين السعادة المطلوبة؛ فترى الواحد منهم يكتب طول الليل والنهار على طلب الدنيا وشهواتها ويزعم أن ذلك لا يضرّ أمثاله، وأنَّه سعى منه في طلب علف البعير، وامتثال لأمر الله عزَّ وجلَّ حيث يقول: ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾. (سورة القصص، ٢٨/٧٧) وهذه حماقة عظيمة يصعب[٣٢] الخلاص عنها إلا لمن أخذ بطبعه[٣٣] عناية أزليَّة. وهؤلاء أيضًا لا ينتفعون بمطالعة هذا الكتاب،

٣٠ ش: حقيقة.
٣١ ب+ مثلا.
٣٢ ش، ب: يبعد.
٣٣ خ: بصُنعه.

فتراهم إذا نظروا فيه يتحذلقون ويقولون: «نحن إذا لم نقلِّد الأنبياء من غير برهان يقوم على صدق ما يقولونه، فما بالنا نقلِّد غيرهم؟ وأيُّ فرقٍ بيننا وبين سائر العوام إذا قلَّدنا واحدًا من غير بصيرة سواء كان نبيًّا أو غيره؟» وهذه مهلكة عظيمة هلك فيها النظار إلا من عصمه الله بفضله، وقليل ما هم.

٥ ونِعم الطريق طريق النظر لو لم يكن فيه أمثال هذه المهالك. ومن زعم أنَّه يسلك ذلك الطريق ولا تضرُّه تلك المهالك فهو جاهل، وسيعلم حقيقة[٣٤] ذلك[٣٥] في سلوكه ولا ينفعه العلم.

القسم الرابع: شرذمة قليلة يسلكون طريق العلم النظري، فإذا فرغوا من قطع عقباته ومنازله، لم يشف ذلك غليل طلبهم شفاء كلِّيًا. ومن حصل له علم ١٠ ضروري يقيني بوجود الباري تعالى وتقدَّس، وبوجود صفاته فسكنت بذلك فورة طلبه، فليس هو من القوم المشار إليهم أصلا، فهؤلاء لا يزيدهم التبحّر في العلوم إلا جدًّا في الطلب وتشوُّقًا إلى مزيد الاستبصار، وتطلّعا إلى ما وراء العلم والعقل من كشف ذوقي يختصُّ به خواصُّ الحقِّ، وهم الذين ينتفعون بهذا الكتاب ومطالعتِه حقَّ الانتفاع. ولم تصدق رغبتي في إملاء هذه الفصول إلا ١٥ لأجلهم، مخافة أنْ أكونَ عُرضةً لقول الشاعر:

فَمَا[٣٦] خَيْرُ مَنْ لا يَنْفَعُ الأَهْلَ عَيشُهُ   وإِنْ مَاتَ لمْ تَجْزَعْ عَلَيهِ الأَقَارِبُ[٣٧]

والله تعالى ينفعهم بمطالعته كما يجب، ولا يجعله وبالا عليَّ وعليهم بفضله وجوده.

---

٣٤ ش: ما ذكرته.
٣٥ ب: ما.
٣٦ ب: فلا.
٣٧ لابن الأحوص

الفصل الثاني
[إثبات وجود القديم عن طريق الوجود]

اعلمْ أنَّ ما اتَّضح به كلام النظَّار من المسائل المطلوبة واستوفى عليه البرهان في كتبهم، فإنِّي لا أطوِّل بذكره في هذا الكتاب، بل أقتصر على ذكر ما أهملوه ولم يتَّضح كلامهم فيه غاية الاتِّضاح: كعلم الله تعالى بالجزئيَّات وحقيقة النبوَّة وبيان أنَّها عالم من عوالم لا يتصوَّر للعقل الوصول إليها، وغير ذلك من المسائل التي تاهت فيها عقول النظار كما تجد في الكتاب تفصيله.

وأمَّا المسائل التي حقَّقوا القول فيها غاية التحقيق، فلا أتعرَّض لها إلا أنْ يجيء ذلك عرضا في أثناء الكلام غير مقصود فكما هو حكم المسألة التي أذكرها في هذا الفصل في إثبات موجود قديم، وإنَّما أوردت ذلك لغرض مهمّ وهو أن يقابل[38] ما أذكره فيها بجميع ما ذكر في الكتب وتنصف أنَّه هل يتصوَّر أن يكونَ قول أوجز وأقرب إلى التحقيق منه أم لا. فإنَّ أهلَ النظر حقَّقوا القولَ في تلك المسألة من وجوهٍ كثيرةٍ، وأكثرهم ضلُّوا فيه عن سواءِ السبيل كمن استدلَّ على وجوده أعني على وجود القديم، من طريق النظر في الحركة، فإنَّ ذلك وإن كان طريقًا واضحًا وبالمقصود وافيًا، فسلوكه يطول، ويحتاج فيه إلى إثبات[39] مقدِّماتٍ يستغني عنها من يسلك الطريق المستقيم. نعم،[40] لست أنكر أنَّ النظر في الحركة فيه فوائد كثيرة، ولكنَّني أقول إنَّه مُسْتَغْنٍ عنه في تلك المسألة من حيث ذاتها.

وقد ذكر الإمام حجَّة الإسلام الغزَّالي رضي الله عنه في كتابه الموسوم بالاقتصاد في الاعتقاد قريبًا من عشرة أوراق في إثبات القديم. ولعمري إنَّه كان معذورًا في ذلك فإنَّ كتابه هذا على منهاج كتب الكلام، وإن كان أكثر كلامه فيه مترقِّيا عمَّا تشتمل عليه كتب المتكلِّمين. وكثير ممن سواه سوَّدوا أوراقًا كثيرة في تلك المسألة كما هو مشهور عند العلماء، وذلك فضول[41] مستغنى عنه.

---

٣٨ ش: يقاس.
٣٩ ش: إتقان.
٤٠ ب- نعم.
٤١ ب: فصول.

والحقُّ اليقين في إثبات القديم أنْ يستدلَّ عليه بالوجود الذي هو أعمُّ الأشياء، إذ لو لم يكن في الوجود قديم لما كان في الوجود موجود أصلا البتَّة، وذلك لأنَّ الوجود ينقسم قسمة حاصرة إلى الحادث والقديم، أعني إلى ما لوجوده بدايةٌ وإلى ما ليس لوجوده بدايةٌ. فلو لم يكن في الوجود قديمٌ لم يكن أصلا حادثٌ، إذ ٥ ليس في طبيعة الحادث أن يوجدَ بذاته، فإنَّ الموجودَ بذاته يكون واجبَ الوجود، والواجب بذاته لا يُتصوَّر له بداية. وينتج من هذه الكلمات قياس برهاني يلقِّبه أهل النظر بالشرطيّ المتَّصل، ليكون إدراكه أسهل على المبتدئ الذي لم يَقْوَ بعد على إدراك الحقائق المعقولة فيقال: لو كان في الوجود موجود لزم بالضرورة أن يكون في الوجود قديم، فهذا أصل يقينيّ لا يتصوَّر أن يشكَّ فيه أحد من الخلائق. ١٠ ثمَّ يقال: والوجود معلوم قطعًا، وهذا أصل ثانٍ وهو كالأوَّل يقينيّ[٤٢].

فتنتج من الأصليْن السابقيْن، وجود موجود قديم بالضرورة. وهذا هو الاستدلال على القديم من طريق الوجود ولا يُتصوَّر أنْ يكونَ وراءَ هذا البيان بيانٌ، لا في الإيجاز ولا في التحقيق.

وبعد ذلك فلا بدَّ من البحث عن صفات هذا القديم الذي ثبت وجوده ١٥ بطريق البرهان الضروري، وأنَّه كيف ينبغي أنْ يكون هذا القديم، وذلك مشهور والكتب به مشحونة، وليس هذا الكتاب ممَّا يحتمل بيان جميع ذلك، فلكلِّ مقام مقال مخصوص. والغرض من هذا الكتاب بيان أمر هو أشرف من العلوم العقلية فلا نطوِّله بذكرها. فاعلمْ الآن وتيقَّنْ أنَّ ما انتهى نظر النظار فيه إلى هذا الحدِّ من الوضوح، فالغالب عليَّ ألَّا أتعرَّضَ أنْ أذكرَه في هذه الفصول إلا إذا احتجتُ ٢٠ إلى ذلك في شيءٍ ممَّا وراءَه.

---

٤٢ ب: بعد ذلك.

الفصل الثالث

[مصدر الوجود]

لا شكَّ عند ذوي البصائر النافذة في حجب الغيب وسرادقات الملكوت في وجود معنى صدر عنه الوجود على أتمّ الوجوه، وهو الذي عُبِّر عنه خارج الحجب في لسان العرب بقولهم الله تعالى. وأعني بذوي البصائر من يدرك وجود ذلك المعنى من غير مقدِّمة علميَّة، كما هو حال أهل النظر. وذلك المعنى يتعالى ويتقدَّس عن أن يطمح نحو حقيقته نظر ناظر سواه. وسبحانه عن أن يطمع طامع في جواز ذلك، فهو المتعزّز بذاته لا عن ذاته. فذاته ونفسه هي التي اقتضتْ هذا التعزُّز على الغير كما أنَّ الشمس بذاتها تقتضي في كمال سلطان إشراقها أنْ تكونَ متعزّزة عن أنْ تمتدَّ إليها أبصار الخفافيش ﴿وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ﴾ (سورة النحل، ٦٠/١٦) ومن آياته الشمس. ولولا إذنه وكرمه الفيَّاض المقتضي الإذن لما اجترأ أحدٌ من البشر على ضرب مثل له، وكيف لا ويستحيل ضرب المثل في حقّه إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ (سورة الشورى،١١/٤٢)

فالشمس في المثال الذي ضربناه ليست تفي بكمال المقصود، فإنَّها لا تقتضي بذاتها لا تعزُّزًا ولا غيره، لأنَّ وجودها مستفادٌ من الغير مع جميع صفاتها. وليس في الوجود موجودٌ له ذات يحقُّ لها حقيقةُ الوجود سوى الواحد القهَّار الذي هو منزَّهٌ عن كلِّ كمال تدركه الأنبياءُ والمقرَّبون فضلا عن نقصانٍ يتخيَّله[٤٣] ضعفاءُ البصائر الذين يكنى عنهم القديم ويقول: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ (سورة الفتح،٦/٤٨)

---

٤٣ ش+ فيه.

فلعزَّة ذاته على عموم الخلائق قال في كتابه الكريم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (سورة الصافات، ٣٧/١٨٠) ولكمال كرمه ونهاية عنايته بعباده نزَّه نفسَه عن النقصان تلطُّفًا بهم وتعطُّفًا عليهم، فقال جلَّ من قائل: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، (سورة الإخلاص، ١١٢/٣) ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ (سورة الجن، ٥ ٧٢/٣) وهو منزَّه في بصائر العارفين عن الكمال الذي يمكن إدراكه للخلق حسب تنزُّهه عند الجاهلين عن كلِّ نقصان.

الفصل الرابع

[أقسام الوجود]

فالله عزَّ وجلَّ هو مصدر الوجود على اختلاف أجناسه وأنواعه. والوجود ١٠ ينقسم إلى أقسام عامَّة تندرج تحتها جميعُ الموجودات، كانقسامه إلى القديم والحادث، والكامل والناقص، والكثير والواحد. ومن أقسامه العامَّة: انقسامه إلى ما له من ذاته خبرٌ وهو كلُّ ما له حياةٌ، وإلى ما ليس له من ذاته خبرٌ وهو كلُّ ما ليس له حياةٌ.

وكلُّ واحد من هذين القسمين يمكن تقسيمُه إلى أقسام مختلفة باعتبارات ١٥ متعدِّدة؛ فلنقسِّم القسم الأوَّل وهو الذي له من ذاته خبر في إدراكه، وإلى ما لا يُدرك إلا الموافق لطبعه، وإلى ما يُدرك المنافي لطبعه مع الموافق له.

وأمَّا القسم الذي لا خبر له من ذاته فينقسم عند اعتبار لونه مثلا إلى الأبيض والأسود وغيرهما، وينقسم انقسامات آخر عند اعتبارات سواه وشرح ذلك يطول وليس الغرضُ متعلِّقًا به؛ فنضرب عنه صفحا إلى ما هو ٢٠ الغرض والمقصود ونقول: بعض الموجودات إذا اعتبر نسبتها إلى القسم الذي يدرك الموافق لطبعه مع المنافي ينقسم باعتبار تلك النسبة فقط إلى الخير والشرِّ، والموافق للقوَّة المدركة خير بالنسبة إليها ما دام يوافقها إدراكه،

فإذا تغيرت بينهما هذه النسبة فلم يوافقها إدراكه بل أضرَّ بها كان شرًّا بالنسبة إليها ولذلك يجوز أنْ يكونَ الشيءُ الواحدُ في حالة واحدة خيرًا وشرًّا بالنسبة إلى مدركين . وما أصدق القائل إذ قال: «مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ.»

الفصل الخامس

[سبب تكثُّر صفات الله تعالى] ٥

اعلمْ أنَّ الله الذي هو خالقُ[٤٤] الموجودات على اختلاف أقسامها، له أَسامٍ كثيرةٌ بالنسبة إلى تلك الأقسام، وتكاد تلك الأسامي تخرج عن الحصر لو أراد مريدٌ أن يستوفيَ جميعَها فله باعتبار النسبة إلى كلِّ موجود حصل منه اسمٌ. وأمَّا ما سمَّى به نفسَه في كتابه الكريم على ألسَنة أنبيائه، وسُمِّيَ به عند الخلق فهو ١٠ محصور. وهذه الكلمات ربَّما تحتاج عند الضعفاء إلى زيادة شرح وإيضاح. وأنا أكسر سورة الإنكار في ذلك وأقول: إذا اعتبر ذات الله عزَّ وجلَّ من حيث هي مصدر القسم الذي يدرك الموافق والمنافي واعتبر مع هذا نسبة ذلك القسم إلى الشيء الذي يوافقه وينافيه من حيث يوافقه وينافيه، ظهر له اسمان وهو الضارُّ والنافع، فإنَّ الجماد لا يضرُّه شيءٌ ولا ينفعه من حيث الإدراك وإن كان يجوز أن ١٥ تنعدم صورته بشيء فيكون ذلك الشيء هو الذي ضرَّ صورته، ولكنَّ الاصطلاح الحقيقي الأصلي في الضرِ والنفع أنَّهما لا يطلقان إلا على ما له إدراك، وأمَّا إطلاقهما في مقتضى اللسان على غيره فهو بطريق النقل. والألفاظ المنقولة كثيرة وهي أشهر من أنْ تحتاجَ إلى بيان، ولا عبرةَ بالألفاظ بعد ظهور المعاني.

---

٤٤ ب: مصدر.

الفصل السادس

[الفرق بين أسماء الله وصفاته]

لعلَّك تقول: الضارُّ والنافع صفتان فكيف قلت إنَّهما اسمان؟ وهل يجوز أن نقول: «صفاتُ الله تعالى أسماؤُه» أم بينهما فرق؟

٥ فاعلمْ أنَّا إذا نظرنا من حيث الحقيقة فالفرق ظاهر بين الاسم والصفة، فإنَّهما متغايران في المعنى. فالاسم هو اللفظ الذي وضعه أهل الاصطلاح للدلالة على مسمَّاه من غير أن يُعتبر فيه صفة على حدتها. فأمَّا الصفة فهي بالعكس من ذلك. وهذا كما أنَّ اسم الحجر مثلا يدلُّ على مسمَّاه من غير أنْ يعتبرَ منه الصلابة أو اللين، والصلب واللين صفتان لا تطلقان إلا عند اعتبار شيئيْن مخصوصيْن في ١٠ الحجر وغيره. وهذا هو الحقُّ الصريح مهما نظرنا من حيث العقل. وأمَّا إذا نظرنا من حيث الشرع فقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (سورة الأعراف، ١٨٠/٧) وعلى هذا يندرج اللطيف والحكيم والخبير والرحمن والرحيم تحت تلك الأسماء. ويشبه ألا يكونَ له اسم يدلُّ على حقيقة مسمَّاه من غير أنْ يعتبرَ بعض صفاته إلا الله، فإنَّ هذا الاسم له بمنزلة أسماء الأعلام للغير.

١٥ الفصل السابع

[لفظة الله اسم خاص لواجب الوجود]

إذا نظرت نظرًا شافيًا علمت أنَّ كلَّ ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به غيرُه فهو باعتبار نسبته إلى بعض الموجودات أو إلى جميعها، وسيأتي لذلك مزيدُ إيضاحٍ فيما بعد.

وأمَّا الاسم الذي هو عَلَمِيٌّ له، فيشبه غاية الإشباه أنْ يكونَ موضوعًا للدلالة ٢٠ على الموجود الذي انتهى إليه نظرُ السالكُ الذي سافر من طريق الوجود الحسِّي إلى الوجود العقلي ثمَّ انتهى به السلوكُ إلى أن فُتِحَتْ له أبوابُ الملكوت. فلمَّا انتهى تغلغله في بِحار الملكوت ظفر بِدُرَّةِ التوحيد ووضع الاسم العلَميّ للدلالة على تلك الدرَّةِ لا باعتبار نسبتها إلى موجود صدر منها بل باعتبار ذاتها فقط من حيث رآها موجودةً.

وأمَّا الذي سمَّى تلك الدرَّةَ قديمةً فإنَّما سمَّاها بذلك من حيث رأى مغايرتَها لسائر الذوات في الحاجة إلى علَّةٍ موجدةٍ لها. وكذلك إذا نظرتَ إلى اسم الحيِّ والحقِّ علمتَ أنَّ واضعَهما نظر عند الوضع إلى موت الغير وبطلانه.

فأمَّا الاسم الذي هو كالعلَم له فلا تجد فيه شيئًا من ذلك، وربّما يتكلَّف في ذلك أيضًا ويتصرَّف فيه بأنواعٍ من التصرُّفات الباردة التي ذكرها أهل النحو والصرف في كتبهم. واشتغالي بشرح وجوه الخلل في تلك التصرُّفات لا يحتمله الوقت فإنَّه أنفَسُ من أن يضيَّعَ بأمثال ذلك، ولا هذه اللمعة تحتمله فإنَّها تنبو مع اختصارها عن بيان ما يضاهي ذلك.

الفصل الثامن

[تعريف الواجب والمحال والممكن]

كلُّ ممكنٍ فيجب وجودُه بالقديم، هكذا جرت سنَّة الله في الملك والملكوت، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٦٢) وكلُّ ما لم يوجدْ بعد فهو يُعَدُّ محالَ الوجود أعني بغيره لا بذاته. والمحال لا يكون مقدورًا وما لم يصِر الشيء مقدورًا فالقدرةُ الأزليَّةُ لا توجِده. وبيان ذلك أنَّ السبب في وجود الموجودات هو اللهُ جلَّ جلاله وهو موجودٌ ولا مانعَ من وجود المسبَّب مع وجود السبب إلا فقد شرطٍ لأنَّ وجود المشروط مع عدم الشرط محالٌ. ومهما وجدتْ شروطُ الممكن أوجبت القدرةُ الأزليَّةُ وجودَه بالضرورة. وما دام يعوزه شرطٌ فهو بعد ليس بممكنِ الوجود.

وإذا تحقَّق ذلك فاعلمْ أنَّ كلَّ موجود فهو واجب الوجود إمَّا بذاته وإمَّا بغيره، وكلَّ معدوم هو محالُ الوجود إمَّا بذاته وإمَّا بغيره. فقد اتصلتْ إذًا حدودُ الواجب والمحال ولا حائلَ يحول بينهما وإنَّما الإمكان حدٌّ فاصلٌ بينهما ولا حقيقةَ له أصلا كالنقطة الوهميَّة التي تفرض على خطٍّ مستقيمٍ، وكالحدِّ الحاجز بين الماضي والمستقبل من الزمان

وكان آخرُ حدودِ الماضي متَّصلا بأوَّلِ حدود المستقبل. وأمَّا الحدُّ الذي يفصل بينهما فلا حقيقةَ له إلا في الوهم. فإنَّك إذا فرضتَ نقطةً وهميَّةً على خطِّ الزمان المنقسم إلى الماضي والمستقبل لم تجدْ شيئًا فاصلا عن الماضي والمستقبل بقي عن خطِّ الزمان حتى يكونَ هو[٤٥] حقيقة الحدِّ الفاصل وهو النقطة
٥ المفروضة في الوهم.

الفصل التاسع

[لماذا خلقَ اللهُ تعالى؟]

إنْ خطرَ ببالِك أنَّ الله تعالى لِمَ يوجد؟ ألِغرضٍ يرجع إليه، وهو محالٌ، أم لغيرِ غرضٍ، وهو أيضًا محالٌ إلا من طريق الطبع المحض، ولا يوصف الله سبحانه
١٠ بذلك. فاعلمْ أنَّ هذا السؤال تحيَّر فيه أكثرُ العلماء وهو الخاطرُ الذي خطرَ لداود عليه السلام حيث قال: «أي ربِّ لِمَ خلقتَ الخلق؟» فقال له: «كنتُ كنزًا مخفيًّا فأحببتُ أن أُعْرَف.»[٤٦] وكان معنى الذي يقتضي صدور الوجود عنه هو الذي كنى عنه بقوله «فأحببتُ أن أُعرَف.»

ولا يتصوَّر إدراكُ ذلك المعنى إلا للعارفين وإنَّما نصيبُ العقل أنْ يستدلَّ
١٥ على وجوده من وجود الموجودات، وذلك بعد ما تحقَّق عنده أنَّ اللهَ تعالى عالم بالجزئيَّات بحيث لا يتشكَّك فيه فإنَّ العقل إذا تحقَّق استنادُ الموجودات إليه وتحقَّق بعد ذلك علمُه بالجزئيَّات ظهر له لا محالة، أنَّ إيجادَ الواجب مع علمِه بالإيجادِ صفةُ ضروريَّة[٤٧] الوجودِ لتلك الذات كما أنَّ القِدمَ مثلا صفةٌ ضروريَّةٌ لها. وكما لا يجوز للواجب ألَّا يكونَ قديمًا فلا يجوز له ألَّا يكونَ مصدرًا
٢٠ للخلق. وكان قول القائل: لِمَ كان مصدرًا للوجود كقوله لم كان قديمًا؟

---

٤٥ ش: له.
٤٦ أورده العجلوني في كشف الخفاء، [٣/١٧٣]
٤٧ ب: له.

والجواب أنَّه لو لم يكن قديمًا لم يكن واجبًا، ولو لم يكن مصدرًا للوجود أيضًا لم يكن واجبًا. فمن تحقَّق استنادُ الوجودِ إليه فلا بُدَّ وأنْ يقولَ: إنَّ الإيجادَ صفةٌ له، فنقول: هذه الصفةُ إن كانت ضروريَّةَ الوجودِ له فالسؤال بِـلِمَ عن كونه موصوفًا بها هوس فهو كالسؤال بـلِمَ عن كونه قديمًا وإن كانت غير ضروريَّة الوجود له فهي صفةٌ عارضةٌ خارجةٌ عن ذاته والعوارضُ تحتاجُ إلى العِلَلِ والواجبُ يأبى بذاتِه أنْ يحتاجَ في شيءٍ إلى شيءٍ وإلا لمْ يكنْ واجبًا.

الفصل العاشر
[عجز العقل في معرفة الله تعالى]

كلُّ موجودٍ حادثٌ وُجد فهو مقدورٌ إذ لو لم يكنْ مقدورًا لما وُجِدَ؛ فمصدر الوجود إذا قادر. وكلُّ موجودٍ مقدورٍ فهو مرادٌ إذ لو لم يكنْ مرادَ الوجود لما وجد، فمصدر الوجود إذا مريد وكلُّ موجود مراد فله إلى الواجب نسبة ما وله أعنى للواجب إلى كلِّ موجودٍ وجه. وكلُّ موجودٍ فهو حاضر للواجب والواجب مغاير[٤٨] لكلِّ موجود وما ليس بحاضر للواجب فهو معدوم إذ ليس له إليه وجه.

ولولا وجه القيوم لم يكن للموجودات أصلا وجود، كما يقال في النظر العامي لولا وجه الشمس المقوم لوجود الشعاعات المنبسطة على الأرض لمْ يكنْ للشعاعات أصلا وجود.

وإذا كان للواجب إلى كلِّ شيءٍ وجه، كان بالضرورة عالما بكلِّ ذرَّة من ذرَّات الوجود. فهذه غاية العقل في عروجه فإنَّه يثبت في الواجب كلَّ ما يراه ضروريًّا له من طريق الاستدلال عليه بالموجودات وصفاتها كما يراه من استدلاله بالموجودات وحدوثها على قدمه وقدرته وعلمه وإرادته، وأمَّا ما وراء ذلك فليس إدراكه من شأن العقل.

---

٤٨ ب: معاين.

الفصل الحادي عشر
[نسبة الموجودات إلى علم الله تعالى]

كلُّ ما في الوجود فنسبته من سعة العلم الأزلي كنسبة لا شيء إلى شيء لا يتناهى. وهذا الكلام يدركه العارفون ببصائرهم تحقيقًا بحيث لا يمكنهم أنْ يتشكَّكوا فيه، كما أنَّ العقلاء يدركون أنَّ الكلَّ أعظم من الجزء، وأنَّ وجودَ المفرد متقدّم على وجود المركَّب وهذا الإدراك يقيني عند العقلاء لا يشوبه شبهة أصلا، والبهائم حُرِمت إدراك ذلك مع وضوحه عند العقلاء. إذ عدمت حاسَّة هذا الإدراك فكذلك العقلاء المعتكفون في طور العقل الذين لا يمكنهم مجاوزته، يحرِّمون إدراك قولنا «نسبة كلّ الموجودات إلى الله تعالى كنسبة لا شيء إلى شيء لا يتناهى.» فيتحيَّرون ويتيهون في كيفيَّة علم الله بالجزئيَّات ويظنُّون أنَّ تغيُّرَ علمه لازمٌ من تغيُّر هذه الجزئيَّات.

الفصل الثاني عشر
[علم الله تعالى]

ومن عجائب آيات القرآن قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ (سورة الأعراف، ٧/٧) فهو مشعر بأنَّ كلَّ شيءٍ حاضرٌ له مع أنَّه حاضرٌ مع كلِّ شيءٍ فلذلك لا يعزب عن علمه شيءٌ. وأمَّا قوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (سورة طه، ٩٨/٢٠) فإنَّ استعمال السعة فيه مع ذكر العلم أعجب من كلِّ عجب. وبيانه أنَّ الموجودات مستفادة من علمه، وعلمه محيط بكلِّ شيءٍ كما قال: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (سورة الطلاق، ١٢/٦٥) والحقُّ أنَّ الله جلَّ وعلا هو الكثير والكلُّ

وأنَّ ما عداه هو الواحد والجزء. لا، بل فكلُّ ما سواه فليس بجزءٍ ولا واحدٍ أيضًا إلا من الوجه الذي يلي كليَّته وكثرته. وخذ لهذا الكلام الغامض في نفسه مثالا على قدر عماك، فاعلمْ أنَّ الشمسَ وإنْ كانت واحدةً فالشعاعات الفائضة منها كثيرةٌ، فالحقُّ أنْ يُقال: إنَّ الشمسَ هي الكثيرة والشعاعات هي الواحدة وإذا كان ٥ العلم المستفاد من وجود المعلوم يسمَّى علمًا وهو علم الخلق فكيف لا تسمَّى الصفة الإلهية التي هي ينبوع الموجودات كلِّها عِلمًا؟ لا، بل الحقُّ ألا يطلق اسم العِلم إلا عليها فإنْ أُطلقَ على غيرها فبالمجاز المحض والتوسُّع البعيد والاشتراك الصرف من حيث الحقيقة عند العارف، وإن كان العلماء يحكمون بأنَّ إطلاقَ لفظ العلم على علم الله وعلم الخلق بطريق التشابه.

١٠ وقول من قال إنَّ الله لا يعلم الجزئيات تعالى عن قولهم علوًّا كبيرًا كأنَّه ذهب إليه معتقده من حيث إنَّه رأى تلك الجزئيات داخلة تحت الماضي والمستقبل فظنَّ أنَّ تغيُّرَها يوجب تغيُّرَ العلم بها، وهذا هوس محض عند أهل التحقيق لأنَّ الزمان جزءٌ من الموجودات لأنَّه عبارةٌ عن مقدار الحركة والحركة من صفات الأجسام خاصة ومعلوم أنَّ الأجسام أخس الأقسام الموجودة من العلم الأزلي. ١٥ والموجودات كلُّها شريفها وخسيسها مستفادة منه، وليس وجود العلم الأزلي موقوفًا على وجود شيء بل وجود كلِّ شيء متوقف على وجوده. فإذا كان الزمان جزءًا من الموجودات كما بُين فكيف يجوز أن يقال: يلزم من تغير بعض الموجودات تغير علمه؟

وإنَّما كان يصحُّ ذلك أنْ لو كان علمه متوقفا على وجود الموجودات كما هو ٢٠ حكم علم الخلق فإذا لم يكن علمه كذلك فلم يلزم من تغيُّر الموجودات تغيُّر العلم المحيط بها.

الفصل الثالث عشر

[تشبيه علم الله بإشراق الشمس]

من ظنَّ أنَّ تغيُّر الشعاعات بسبب حجابٍ يمنع استعدادَ الأرض لقبولها كالسحاب مثلا، يلزم منه تغير الصفة التي هي ينبوع الشعاعات، فقد ضل ضلالا بعيدا. ولعمري يجوز أن تتغير الشمس فتتغيُّر الشعاعات عند تغيُّرها ولكنَّنا فرضنا الكلام فيما إذا كان تغيُّر الشعاعات صادرًا عن حجابٍ يمنع قبولَ الأرض لنور الشمس، لست أقول يمنع فيضان الشمس، فإنَّ الشمسَ بصفاتها كما كانت لم يتغيَّر شيء منها بسبب هذا الحجاب، وإنَّما الحجاب يمنع قبول الأرض لفيضان نور الشمس.

الفصل الرابع عشر

[تجلِّي الصفات كمال لقابله]

الشمس بذاتها كاملةٌ في سلطان إشراقها ليست تحتاج في اكتساب كمال إلى شيء آخر فمن ظنَّ أنَّها إذا قابلت جسمًا فظهر شعاعها عليه وبلغ أثرها إليه، كان ذلك كمالا في حقِّها فقد أخطأ خطأً فاحشًا. فإنَّ كمالَ كلِّ شيءٍ في مقابلته للشمس حتى يحظى من كمال إشراقها بنصيب ما، فأمَّا أنْ تكونَ مقابلةُ الشمس لشيءٍ كمالا لها فكلّا وحاشا. هذا من حيث النظر العامِّي مثال جلي في تفهيم المقصود وهو عند أولي الألباب لبُّ اللبِّ وكمالُ الكمالِ.

وهذه الألفاظُ تبعد غاية البعد أن تتجلى حقائق معانيها لبصيرة العقل، وإنَّما إدراكها إلى طور وراء العقل ومهما كان في باطنك شيء منه فلو أفيضت عليك المعقولات كلُّها دفعةً واحدةً لم يشفِ ذلك غليلَك أصلا. وكما لا يسكن طلب الجائع بالماء ولا طلب العطشان بالخبز؛ وكذلك طلبُ العارف المخصوص بالطور الذي وراءَ العقل لا يسكن بالمعقولات.

الفصل الخامس عشر
[علم الله تعالى بالجزئيَّات]

نسبة الموجودات كلِّها إلى الله واحدةٌ فالحاضر من الأزمنة والماضي منها والمستقبل متساوي النسبة إليه وللموجودات إذا نظرت إليها بنظر العقل ترتيب فإنَّ لبعضها تقدُّمًا على البعض كتقدُّم المفرد على المركب ولكنَّها إذا أضيفت إليه ونسبت على الوجه الحقِّ تساوَتْ نسبتُها إليه فهو واسع ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (سورة طه، ٩٨/٢٠) أي لولا علمه بوجوده لما وجد. والذي وجد والذي لم يوجد داخلان على التساوي تحت علمه المحيط الذي تعجز أفهام الخلق دون إدراكه وتتلاشى عقولهم تحت[٤٩] ملاحظة حقيقته وتنمحق قواهم دون الوصول إلى أثر من آثاره إذ لا يشبه علمه أصلا علم الخلق كما لا يشبه ذات الشمس شعاعًا أصلا في المثال المحسوس الذي يقتصر نظر العوام عليه وكيف لا وعلمه الأزلي كان موجودًا قبل الزمان وقبل جميع الموجودات كما هو الآن موجود وليس لعقولنا الضعيفة أنْ تدرك علمه بالجزئيات على ما يجب ولكنَّها تدرك عجزها عن إدراك ذلك كما يدرك الوهم عجزه عن إدراك حقيقة موجود لا يكون داخل العالم ولا خارجه ولا متصلا به ولا منفصلا عنه.

ولا يمكن أنْ يعبِّر عن حقيقة العلم الأزلي من طريق العلم إلا بهذه العبارة الموضوعة لمعنى غير المعنى الذي أريد بها هاهنا ولذلك تتشوش العقول والأفهام دون إدراك ذلك فمن قصر عقله وفهمه وعلمه عن إدراكه فليحل بالعجز على قوته وقدرته وليكرِّر نظره في تفهمه فعساه ينفتح له باب منه وليستعن الله عزَّ وجلَّ على التوفيق لما يطهر القلب عن الحجب المانعة له عن الإدراك الحقيقي ولا يبادرنّ إلى التكذيب دون التوقُّف فيه.

---

٤٩ ش: دون.

فهذا معتقد قوم اعتقدوا بضع سنين في العلم القديم ما يعتقده سائر الضلال، حتى هداهم بنوره فضلا منه وكرمًا لا استحقاقًا منهم واستيجابًا. والله عزَّ وجلَّ يزيدهم معرفة بعجز عقولهم عن إدراك الأمور الإلهية. فمن طمع أنْ يحيطَ عقلُه وعلمُه بحقيقة علمٍ كان موجودًا قبل الكون وقبل القبل وهو سبب لوجود ٥ الموجودات ومحيط بالكلِّ إحاطة لا يتصوَّر أنْ يكونَ ورائَها إحاطة فقد طلب بيض الأنوق وطمع في تناول العيوق وانخلع بالحقيقة عن غريزة العقل وبالحرى أنْ يُعَدَّ أمثالُهم من المجانين عند أهل الفضل فعقولنا أعجز عن إدراك العلم الأزلي من النمل لا بل من الجماد عن إدراك علمنا بدرجات كثيرة.

ونسبة علمه إلى علمنا كنسبة قدرته إلى قدرتنا فكما يستحيل في قدرتنا ١٠ اختراع شيء أعنى إيجاده لا من شيء وليس ذلك يستحيل في قدرته الأزلية لأنَّه بديع السماوات والأرض أي موجدهما ومخترعهما لا من شيء. فكذلك يستحيل في علمنا أنْ يتغيَّر المعلوم ولا يوجب تغيُّرًا فيه لأنَّ علمَنا مستفاد من المعلوم. ولا يستحيل ذلك في علم الله الذي يستند إليه وجود الموجودات كلِّها. نعم لما كان العقل يدرك في أوَّل نظرة تفاوتا بين القدرتين ولم يدرك تفاوتا بين العلمين ١٥ تاه في الحكم فوقع في هذه الأغلوطة وتعقل هذه الأحبولة. والله تعالى فوق العقل ومحيط بالعقل وكيف يتصوَّر أن يحيط العقل به وبصفاته وإحاطة الجزء بالكل في غاية البعد والعقل ذرَّة من ذرَّات الموجود الحاصل منه؟! وقد ذكرنا أنَّ الموجودات كلَّها لا نسبة لها أصلا من سعة العلم الأزلي فكيف يليق بالعقل أن يطمع في إدراكه؟ ومن قصر فهمه عن إدراك هذا العجز فهو لجهله وقلة ٢٠ استعداده لإدراك عجزه وليس لقصوره مستند إلا ضيق حوصلة عقله.

عَليَّ نَحتُ القَوافِي مِنْ مَعَادِنِها   ومَا عَليَّ إِذا لمْ تَفهَمِ البَقَرُ[٥٠]

فسبحان من أرسل محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم إلى كافَّة الخلق ونطق على لسانه بالحقِّ فقال جلَّ من قائل: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة، ١١٥/٢) ولو لم يكن في القرآن سوى هذه الآية لكان كافيًا في الشهادة على جحد الجاحدين المكذِّبين بإحاطة العلم الأزلي بالجزئيَّات وكيف ولا حرف منه إلا وهو شاهد على عماهم وذلك أنَّه ذكر في تلك الآية صفة الواسع مع ذكر العليم وقرن ذلك بأنْ قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ (سورة البقرة، ١١٥/٢) وهذه إشارة لطيفة صريحة إلى أنَّ كلَّ موجود فله نسبة ما إلى وجهه لولا تلك النسبة لما وجد. فكلُّ شيء فإنَّه يعاينه لأنَّ وجهه إليه وهذا معنى علمه بالجزئيَّات.

الفصل السادس عشر
[تصديق بالعلم الأزلي الحقيقي]

ما دمت تطمع في التصديق بحقيقة العلم الأزلي من طريق المقدمات فأنت بعد تضرب في حديدٍ باردٍ، إنَّما التصديق الحقيقي به موقوف على ظهور نور في الباطن ينشرح به صدرك وتتَّسع له حوصلتك فتدرك بذلك النور أنَّ الله تعالى لا يشبه علمه علم الخلائق وينقطع عند ذلك طمعك عن الإيمان المستفاد من طريق العلم، وتتحقَّق يقينًا أنَّه ما لم يظهر هذا النور في الباطن فلا يُتصوَّر لأحدٍ أنْ يؤمن بصفة العلم وسائر الصفات حقَّ الإيمان. وحقُّ الإيمان أنْ تدعَ التصرُّف رأسًا في الصفات الأزليَّة، وتدعَ الطمعَ في التصرُّف؛ وما لم تصِرْ كذلك فلا تطمعْ في حقيقة الإيمان.

---

٥٠ للشاعر العباسي ابن حجاج

وهذا النور المشار إليه يظهر في الباطن عند ظهور طور وراء العقل. ولا تستبعد وجود ذلك فإنَّ وراءَ العقل أطوارًا كثيرةً ويكاد لا يعرف عددَها إلا الله عزَّ وجلَّ. وأقلّ ما يُدرَك في هذا الطور مُدرَكات لا يحتاج في إدراكها إلى الاستدلال بالمقدمات. فالبصير لا يحتاج إلى الاستدلال في إدراك المبصرات إنَّما الأكمه هو الذي لا يتمكَّن من إدراكها إلا من طريق الاستدلال عليها كما لو استدلَّ باللمس على وجود المبصر. وأمَّا ما وراء الوجود من حقيقة اللون فليس ممكن له إدراكه لأنَّ طريقَ الاستدلال في ذلك مسدود.

الفصل السابع عشر
[وظيفة العقل]

العقل إنَّما خُلِقَ في الأصل لإدراك الأوليَّات التي لا يُحتاج فيها إلى المقدمات. فأمَّا إدراكه لغوامض النظريَّات عن طريق الاستدلال والاعتبار بالمقدِّمات فكأنَّه خارج عن طبعه الأصلي. وهذا كما أنَّ حاسَّة اللمس خُلِقَتْ في الأصل لإدراك الملموسات من حيث هي ملموسات، فإذا استعملها الأكمه للاستدلال على وجود ما يُدرَك بالقوَّة الباصرة كان ذلك خارجًا عن طبعها أعني عن طبع الحاسَّة اللامسة. وكذلك الكتابة من خاصَّة اليد فإذا كان الأقطع يكتب برجله كان خارجًا عن طبعها، فإنَّ القدرةَ الأزليَّة لم تُوجِد الرِجلَ للكتابة بل لأمورٍ آخر. واعلمْ أنَّ من ذلك أنَّ إدراك المعقولات الغامضة إلى طور وراء العقل يستغنى في إدراكها عن المقدمات فإنَّ نسبته إلى الغوامض نسبة العقل إلى الأوَّليَّات.

الفصل الثامن عشر

[وظيفة العقل على سبيل المثال]

لعلَّك تقول: هذا يعسر عليَّ إدراكه فزده شرحا. فاعلمْ أنَّ نسبة هذا الطور إلى مدركاته كنسبة قوة ذوق الشعر إلى إدراك الفرق بين موزون الشعر ومنزحفه، فتلك القوة لا تحتاج في إدراك[٥١] الفرق بين الموزن والمنزحف إلى مقدمة، فكذلك الطور الذي وراء العقل لا يحتاج في إدراك الفرق بين الحقِّ والباطل في غوامض المسائل إلى مقدمات كما يحتاج إليها الناظر من طريق العقل لنقصانه، وكما يحتاج الأعمى في إدراك وجود المبصَرات إلى أنْ يتحرك بقدَمه إليها ثمَّ يدرك وجودها بقوة اللمس، وكما يحتاج الذي لا ذوق له إلى مقدمات العروض حتى يدرك بواسطتها الموزون والمنزحف من الشعر.

الفصل التاسع عشر

[بداية طور ما وراء العقل]

اعلمْ أنَّ للعقل طريقًا إلى أن يدرك معنى القليل والكثير وإنَّما صفتان إضافيتان للعدد، وله طريق إلى أن يُدرك أنَّ القليل المطلق الذي لا أقلَّ منه في الأعداد هو الاثنان، وليس له طريق إلى الإدراك الكثير المطلق الذي لا أكثر منه[٥٢]. فاعلمْ أنَّ نسبة الكثير المطلق في الإدراك إلى العلم الأزلي كنسبة القليل المطلق فلا فرق في علم الله بين [٥٣]إدراك الكثير المطلق والقليل المطلق. ولا يمكن للعقل أن يدرك كيفية إحاطة العلم الأزلي بذلك بل إدراكها موقوف على انفتاح عين في باطن الآدمي يختصُّ بها العارفون وحينئذ يتبيَّن له حقيقة الطور الذي بعد[٥٤] العقل.

---

٥١ ش: هذا

٥٢ ش: في الأعداد.

٥٣ ب: بين.

٥٤ ش: وراء.

ونسبة العقل من هذه العين كنسبة الشعاع من الشمس وقصور العقل من إدراك مدركات هذه العين، يضاهي قصور الوهم عن إدراك مدركات العقل. فمن صادف من باطنه تصديقًا ضروريًا لا مجال فيه لشك ولا ريب، بان الكثير المطلق في علم الله تعالى كالقليل المطلق من غير فرق وتفاوت. فليتحقق أن عين المعرفة قد انفتحت في باطنه، وستصير ينبوعا على القرب لأمثال هذا الحكم. فإيَّاه ثمَّ إيَّاه أنْ يدع للقذى إليها طريقًا فكثيرًا ما يقع لها من الوقائع ما يعمشها ويقذيها وعلى الجملة يخرجها عن كونها مدركة لما يخصها. وليعتبر في ذلك بقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ﴾. (سورة البقرة، ٢/١٧)

واعلمْ أنَّ نسبة تلك الوقائع من عين المعرفة كنسبة الوقائع التي تقع للأرض وتبطل استعداد قبولها لفيضان نور الشمس عليها من الأرض.

الفصل العشرون
[لذَّة العقل ولذَّة طور ما وراء العقل]

من خواص الطور الذي بعد العقل انه إذا أدرك وجود الحق تعالى لزمه شوق عظيم إليه وطلب تام لا يتصور عنه العبارة. والعقل أيضًا يلتذ بإدراك وجود الحق ولكنه ليس ذلك التذاذا بإدراك جماله بل هو الالتذاذ به من حيث انه معلوم كما يلتذ بسائر المعلومات من الحساب والطب وغيرها. ولعمري لا أنكر التفاوت في التذاذه بين إدراك الحق وبين إدراك مسألة حسابية ولكنه كالتفاوت الذي يراه في سائر المعلومات من حيث شرفها وخستها، بل من حيث أن بعضها فوق بعض بالطبع. وكأن العقل إذا التذ بإدراك وجود الحق من حيث كونه معلوما فهو شبيه بالبصر الظاهر

إذا التذ بإدراك مشموم طيب من حيث انه مبصر ذو لون حسن، فإنَّ هذا الالتذاذ بعيد عن التذاذ حاسة الشم برائحته عند إدراكها. فكما أن إدراك البصير لوجود المسك بحاسة البصر والتذاذه بإدراك لونه لا يظهر فيه عظيم شوق وكثير طلب للمسك كما هو [55]حق من يدرك رائحته بحاسة الشم، فكذلك من أدرك وجود
٥ الحق من طريق المقدمات العقلية فلا يلزم إدراكه الشوق الذي يلزم العارف وإنَّما يلتذ العقل بإدراكه [56]من حيث انه معلوم فقط.

الفصل الحادي والعشرون
[ألفة طور ما وراء العقل بالعالم الإلهي]

إذا انفتحت للسالك عين المعرفة فبقدر كمالها واستعدادها للإدراك تفيض عليه
١٠ لطائف الأمور الإلهية، وبقدر فيضان ذلك عليه، يحصل له ألف مع عالم الملكوت وانس بالطاف الحق وعشق بجمال الحضرة الأزلية فيتناقض انسه بهذا العالم على التدريج شيئًا فشيئًا ويتزايد بقدر ذلك انسه بالعالم الإلهي. وربما تقيس الآن هذا الأنس على ما يحصل للناظر من الأنس بالعلوم النظرية، وذلك ظنٌّ فاسد وخطأ شنيع وخاطر فاحش، وإنَّما استعير هاهنا لفظ الأنس وغيره من العشق والجمال
١٥ وغيرهما ضرورة فلا يغرنك تشابههما في المعاني المختلفة فتضل من حيث لا تدري وتقنع من مسمياتها بترهات يتخيَّلها عقلك الضعيف منها.

الفصل الثاني والعشرون
[الإيمان بالنبوَّة يتحقق بطور ما وراء العقل]

من لم يرزق من هذا الطور شيئا لم يصدق عقله من طريق المقدمات بوجوده
٢٠ وكاد يستحيل له الإيمان بالنبوَّة إذ النبوَّة عبارة عن طور وراء[57] ووراء هذا الطور الذي سبقت الإشارة إليه، ومن لم يصدق بذلك فهو بعد غير مصدق بالنبوَّة أصلان. فما ظنُّك بمن يكذب بطور الولاية وهو الذي يظهر بعد العقل ولا يظهر طور النبوَّة إلا بعده؟

---

٥٥ ش+ في.
٥٦ ب+ ذلك كلّه.
٥٧ ش+ العقل.

وان صدق باللسان أو اعتقد بالقلب انه مصدق باللسان أو اعتقد بالقلب انه مصدق[٥٨] النبوّة فهو مخطئ ويكون مثاله في اعتقاده هذا مثال الأكمه إذا اعتقد انه[٥٩] مصدق بوجود اللون وإدراك حقيقته حيث إدراك وجود المتلون بقوّة اللمس[٦٠]
٥ فلذلك بعيد عن إدراك حقيقة اللون.

الفصل الثالث والعشرون
[الإيمان بالنبوّة إيمان بالغيب]

الإيمان بالنبوّة إيمان بالغيب عند العقل، فإنْ شبّه العقل هذا الغيب بشيء ممّا هو حاضر لإدراكه فهو بعيد جدًّا عما هو الحقّ. فإنْ حصل لك مثل هذا
١٠ الإيمان فاعلمْ أنّك مؤمن بالنبوّة وإلا فحرام عليك أن تأكل أو تشرب أو تنام إلا عن ضرورة حتى تصل إلى هذا الإيمان. فإنْ قبلت هذه النصيحة أفلحت وإنْ أهملتها أُهملت ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة العنكبوت، ٦/٢٩) وسيستقبل أمثالك عند ظهور ناصية ملك الموت قوله تعال: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾. (سورة الزمر، ٤٧/٣٩)

١٥
الفصل الرابع والعشرون
[طريقة زيادة الإيمان بالنبوّة]

لعلّك تقول: فما سبيل الذي يجب سلوكه على العاقل حتى يتمكن من الإيمان بالنبوّة؟ فأقول: سبيله سبيل من لا ذوق له في الشعر في مجالسته أهل الذوق حتى يحصل غرضه، فكثير ممّن لا يكون لهم ذوق الشعر ولا يُدركون فرقًا بين المنظوم
٢٠ والمنثور، صدّقوا بوجود قوة في غيرهم شأنها[٦١] إدراك ذلك الفرق، وذلك لكثرة مجالستهم لأقوام لم يحرموا تلك القوة فصاروا مؤمنين بالغيب إيمانا يقينيا.

---

٥٨ ب، ش+ بحقيقة.
٥٩ ش+ قد.
٦٠ ب: الحس. +هيهات.. ش: اللون.
٦١ ب: فشأنهم.

الفصل الخامس والعشرون
[صفات الله عند أهل البصيرة والعقل]

صفات الله تعالى منقسمة إلى ما يدرك من طريق النظر في بعض الموجودات واتصافها بصفات مخصوصة كالحكيم والصانع والخالق وهذه الصفات يتصور للعقل إدراكها، فأما الصفات التي لا تعلق لها بالموجودات[٦٢] أصلا، فإدراك ذلك وحقيقته موقوف على ظهور الطور الذي بعد العقل وذلك كصفة الكبرياء والعظمة والجمال والبهاء فإنَّ كلَّ ما يدركه العقل من معاني هذه الألفاظ بعيد عن حقائقها. فإياك أن تغتر بظواهر الأمور فإنَّ الطبع مجبول على التحلّي بكلّ كمال مع التعري عنه فلا يعترف بالعجز بل يخوض فيما يجوز له فيه الخوض وفيما لا يجوز، ويزاحم فيما يمكن له إدراكه وفيما لا يمكن مزاحمة الوهم للعقل من[٦٣] مدركاته وحسبك شاهدا على تكذيب الطبع إذا قال لك أن العقل يمكن له إدراك الجمال الأزلي أن تقول له: «الجميل يُترَك للأجمل، فما بالك لا تترك له ما سواه مع أنَّ أجملَ الأشياء بالإضافة إلى جماله أقبح من كلِّ قبيح؟» وعند[٦٤] ذلك يفزع الطبع إلى هذياناتٍ أُشفق على زماني أنْ أضيّعه في ذكرها وفي وجه الخلل في كلِّ واحدٍ منها. ومن ساعدته هذه الدولة فرُزق شيئًا من حقيقة الطور المشار إليه حتى أدرك به من الجمال الأزلي قدرًا قُدِّر له إدراكه فهذا القدر يكفيه شاهدًا على الغرض المطلوب.

الفصل السادس والعشرون
[العشق من خصائص ما وراء طور العقل]

العشق من خواص هذا الطور فلا شكَّ عند من شاهد أحوال العشق أنَّ العقل معزول عن إدراك تلك الأحوال إذ لا سبيلَ للعاشق إلى إيصال[٦٥] معنى العشق، الذي هو ملابس له، إلى فهم عاقل لم يلابسه ذوقًا حتى يكون هو بمنزلة العاشق الذي ذاقه.

---

٦٢ ش: بموجود.
٦٣ ب، ش: في.
٦٤ ش: عندك.
٦٥ ش: اتصال.

وهذا شأن العقل في جميع الأحوال من الغضب والفرح والوجل والخجل فالعقل يدرك العلوم وليس إلى إدراك الأحوال له سبيل نعم يدرك وجودها ويحكم على كلِّ واحدٍ منها بأحوالٍ[٦٦] كثيرةٍ فأما ماهية العشق وسائر الأحوال فلا يدركها العقل من طريق المقدمات كما يدرك المدركات المعقولة إذا سمع مقدماتها من ٥ غيره حتى ساواه في الإدراك.

الفصل السابع والعشرون
[حقيقة العشق]

العشق يتبعه الطلب إلى المطلوب[٦٧]، وحقيقة الطلب أن يكون نظر الطالب بكليَّته متوجِّهًا إلى المطلوب وحينئذٍ يكون الطلب والوجدان توْأمَيْن. واعتبرْ ١٠ في حقيقة الطلب بانجذاب الحديد إلى المغناطيس، فإنَّ الحديد إذا كان خالصًا انجذبَ بكليَّته إليه ولم يكن في طلبه تفرقة، فإنْ اختلطَ[٦٨] بشيء من الذهب أو الفضّة أو غيرهما اقتضى ذلك نقصانًا في كمال الانجذاب، ومهما لم يكن فيه شوب من غيره، فالطلب الحقيقي ضروريّ وحينئذ يكون الوجدان أي الوصول إلى المغناطيس ضروريًّا. وهذا معنى قولنا: «الطلب والوجدان توأمان.» ثمَّ ١٥ الحديد قد يعوِّقه عن الانجذاب عائق من خارج، فلا يكون ذلك قادحًا[٦٩] في كمال الطلب إنَّما القادح أن يكون في ذاته شوبًا من ذهب أو جصّ أو غيرهما ممّا اختلط به في معدنه. والعائق الخارجي قد لا يكون له عظيمُ تأثيرٍ في قطع طريق الطلب أي الانجذاب إليه. ومهما لم يكن في ذات العاشق شوبٌ من شيءٍ[٧٠] يولِّي وجهه للمعشوق كان بكليّته ملبِّيًا للإحرام إلى قبلته المطلوبة، وهي ٢٠ وجهة المعشوق؛ وحينئذٍ يكون الطالب من أهل البداية في الطلب ويتجلَّى له حقيقة قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة البقرة، ١٣١/٢) وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾ (سورة آل عمران، ١٩/٣)

---

٦٦ ش، ب: أحكام.
٦٧ ش، ب: المعشوق.
٦٨ ش+ به شيء.
٦٩ ش: قدحا.
٧٠ ش، ب+ ليس.

وقوله: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (سورة الروم، ٣٠/٣٠) وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (سورة الحج، ٧٦/٢٢) وقوله ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (سورة الزمر، ٣/٣٩) وقوله: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ ٥ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا﴾ (سورة البقرة، ٢٥٦/٢) وقوله: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ (سورة البلد، ٩٠/١٢-١١)

والفرق بين ما يعوّق العاشق من داخل ويكون منزلتُه منه منزلةَ الذهب إذا اختلطَ بالحديد وبين ما يعوّقه من خارج ويكون منزلتُه منه منزلةَ يدٍ قاصرةٍ تمنعُ الحديدَ عن الانجذاب يكاد يعسر إدراكُه إلا على من صار له قَدمُ راسخٍ في ذلك.

١٠ وإيّاك ثمَّ إيّاك يا جامدًا على علمك ومغرورًا بعقلك أن تنظرَ إلى هذا الفصل وأمثاله بعين الاستحقار، وتمسح بها سبلتَك وتظنّ أنَّ ذلك من الطامّات التي يلقّنها بعض الحمقى الضالّين من الباطلين. ومن لم يصلْ إلى شيءٍ من معانيها ذوقًا فيكون ممّنْ يقول فيه القرآن: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ (سورة الأحقاف، ١١/٤٦) ويقول: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ ١٥ تَأْوِيلُهُ﴾ (سورة يونس، ٣٩/١٠)

هذا نصيبك من الواجب عليَّ في نصيحتِك. وأمّا العارفون؛ فسواءٌ عندهم[٧١] إيمانُك وكفرُك، فمنزلةُ علمِك الذي تدلّ به عندهم كمنزلةِ علمِ الحياكة والحجامة عند أهل التحقيقِ من العلماء.. وماذا على العالم المحيط علمه بحقائق المعلومات الشريفة لو لم يحط بعلم الحياكة والحجامة؟!

٧١ ش، ب: عليهم.

الفصل الثامن والعشرون
[نهاية العقل بداية طور ما وراء العقل]

كلّ من كان أوفر حظًّا من هذا الطور كان عقله أبصر بعجزه عن إدراك الحقيقة الأول وإدراك حقيقة صفاته. وآخر عالم من عوالم المدركات المعقولة أن يدرك العقل عجزه عن إدراك كثير من الموجودات وهذا العجز من أوائل ما يلوح في الطور الذي بعد العقل فكان آخر حدود طور العقل متصلا بأول حدود الطور الذي بعده كما أنَّ آخر حدود التمييز متصل بأول حدود العقل. فمن خاصية العالم إذا كمل[٧٢] في علمه، أن يعلم يقينا انه لا يتصور له إدراك الحقيقة الأزلية وإنَّما يدرك ذلك بعد إتقان مقدمات كثيرة مشهورة عند العلماء النظار. ثمَّ يكون بين إدراك العقل بعجزه عن المقدمات وبين إدراك العارف لذلك العجز أعنى لعجز العقل عن إدراك مدركات العارف بون بعيد وفرق عظيم. ويكاد يكون ذلك العجز الذي يلوح للعقل بمنزلة العجز الذي يلوح للوهم عن إدراك مدركات العقل، فإنَّ عجز الوهم عن إدراك المعقولات الغامضة مستفاد عند الوهم من المقدمات، وأما العقل فإنَّه يدرك عجز الوهم عن مدركاته من غير مقدمة فغاية الوهم أن يعترف بالعجز عن إدراك العقليات إذا قرر العقل ذلك عنده بمقدمات مسلمة عند الوهم، فكذلك العاقل إذا تقرَّر عنده عجز العقل عن مدركات العارفين فقد بلغ آخر منازل العقل، وأدرك منتهى ما يمكن إدراكه بالعقل فيستوطن حينئذ كعبة طلبه. وههنا يوافى السالك أول منزل من منازل طور المعرفة.

الفصل التاسع والعشرون
[مقارنة بين إدراك كلٍّ من الوهم والعقل لعجزه]

العقل بالضرورة عاجز عن إدراك عجزه الحقيقي وعن إدراك مدركات العارف كما أن الوهم بالضرورة عاجز عن إدراك حقيقة عجزه عن إدراك المعقولات. والعقل هو الذي يدرك العجز الحقيقي الذي يلازم[٧٣] الوهم عن إدراك الأمور العقلية

٧٢ ش، ب: أكمل.
٧٣ ش: يلزم. ب: لازم.

فإذا كان العقل عاجزا عن إدراك عجزه الحقيقي فكيف يتعجب المتعجبون من قولنا انه عاجز عن إدراك حقيقة الحق وحقيقة علمه الذي هو ينبوع الوجود؟ فإذا يرجع تفاوت العقول في هذا النظر إلى تفاوت في الاستعداد لإدراك العجز، فليس العجز الذي اعترف به محمّد صلّى الله عليه وسلّم مثل العجز الذي اعترف ٥ به أبو بكر لا بل وفي الاعتراف بالعجز عن الاعتراف بالعجز أيضًا تفاوت عظيم ولعلّ النفس إذا استغرقها العجز عن إدراك كمال العجز فقد صارت مدركة للعجز من طريق المعرفة لا من طريق المقدمات ولعلّ قول الصدِّيق الأكبر «العجز عن درك الإدراك إدراكٌ.» كان إشارة إلى شيء يشبه ذلك ولعلّ المعرفة المذكورة في قول الصوفية «من عرف الله كلّ لسانه.» قريبة في المعنى ممّا أشير إليه.

١٠ الفصل الثلاثون

[مقدِّمة في صفات الله وأقسامه]

قد انتهى بي الكلام إلى أن جاوزت حدود النظر العقلي، ويكاد ما خضت فيه يضر سماعه بأكثر الخلق فقليل منهم[٧٤] يدرك ذلك ولا ينكره. فالأولى بي الآن أن ارجع[٧٥] إلى الغرض المقصود فأقول: ما أحوجك إلى استتمام سماع المعنى التي ١٥ كنا به من قبل في حديث الصفات ودلالة أقسام الموجود[٧٦] على أقسام الصفات المتعددة التي هي بالحقيقة لا عين الذات ولا غيرها، كما قال أهل الحق وأجمعوا عليه من عند آخرهم، فإنَّ الحكم بأمثال ذلك مستنكر عند العقول الضعيفة.

الفصل الحادي والثلاثون

[الصفات لا عين الذات ولا غيره]

٢٠ لعلَّك تقول: من المحال الظاهر في العقل الأول أن يكون الشيء لا عين شيء آخر ولا غيره، فهل لك أن تزيد ذلك بيانا فربما يشفي به بعض الغليل؟ فاعلمْ أنَّ قول القائل: إنَّ هذا الشيء مثلا، لا عين ذلك الشيء ولا غيره من وجه واحد محال وليس أحد من العقلاء يصير إلى اعتقاد أمثاله.

---

٧٤ ش: من.

٧٥ ش: الرجوع.

٧٦ ش، ب: الوجود.

ولكن إذا وجد فيه اعتباران، لم يكن محالا كما أن يقال مثلا: هذا الشيء ليس بمعدوم ولا بموجود فإنَّ ذلك محال قطعًا، واستحالته للعقل في غاية الوضوح ولكنه ظاهر الصدق إذا اعتبر في معناه وجهان وأطلقا على مقتضى معنيين مختلفين. وبيانه أن الشيء قد يكون موجودا من وجه، ومعدوما من وجه آخر وهذا حكم كلِّ ٥ موجود سوى الموجود الذي وجوده قائم بذاته. فإنَّ كلَّ ممكن إذا نُظر إلى ذاته ولم تعتبر قيومية الواجب له كان معدوما من حيث ذاته ومهما نظر إليه واعتبر من الوجه الذي يلي قيومية الواجب، كان موجودا وإلى مثل ذلك يشير القرآن العظيم والكلام القديم حيث يقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (سورة الرحمن: ٥٥/٢٧-٢٦) وعلى شيء شبيه بذلك ينبه قول النبي صلَّى الله عليه ١٠ وسلَّم حيث يقول: «أصدق بيت قالته العرب قول لبيد:

ألا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا اللهَ بَاطِلُ وكلُّ نَعِيمٍ لا مَحَالَةَ زَائِلُ[٧٧]

الفصل الثاني والثلاثون

[توضيح عدم تجزء وحدة الذات بتكثر الصفات]

الصفات عين الذات إذا نظر إليها من الوجه الذي يلي الذات وعلى هذا لا ١٥ يكون فيها تغاير أصلا والبتة. وهي غير الذات إذا نظر إليها من الوجه الذي يلي اِنقسام الوجود إلى الأقسام المتعددة، وعلى هذا الوجه تكون الصفات متغايرة ومتعددة. وهذا له مثال واضح، ولعلَّ نفسك لا تقنع إلا بعد سماعه، فهو الذي يكسر سورة استبعادها بالكلية لما نحن فيه، ويقطع دابر إنكار المتحذلقين عليه.

---

٧٧ رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب شهادة الشعراء [١٠/٢٣٧]

فاعلمْ أنَّ العشرة لها في ذاتها معنى مفهوم وذلك المعنى واحد لا ينقسم ويدل عليه لفظ العشرة فأما إذا اعتبر منها نسبته إلى الخمسة دل عليها بلفظ الضعف، وإذا اعتبر نسبتها إلى العشرين دل عليها بلفظ النصف، وإذا اعتبر نسبتها إلى الثلاثين دل عليها بلفظ الثلث، وعلى هذا يمكن أن يدل عليها بألفاظ اخر عند اختلاف ٥ نسبتها إلى أعداد اخر. وهذه الصفات التي وصفت بها العشرة عند اختلاف تلك النسبة واحدة من وجه وكثيرة من وجه، فإذا اعتبر منها الوجه الذي يلي ذات العشرة لم يوجد فيها تعدد، وإذا اعتبر منها الوجه الذي يلي أقسام الأعداد التي نسبت العشرة إليها تعددت باعتبار تلك النسب بتعدد أعداد نسبت إليها.

فكذلك ذات الواجب الحق[٧٨] يلزمها الوحدة وكيف لا يلزمها الوحدة والأحدية ١٠ التي هي اخصّ من الوحدة لازمة لها إذ لا يمكن أن يجود لغيرها من الذوات خاصيتها الموجودة لها ؟؟ والوحدة لازمة للشمس إذ ليس لها ثانية في الوجود ولكن الأحدية ليست لازمة لها، إذ يمكن وجود ثانية لها. فإذا نظرت عين الذات الواجبة لها إلى نفسها صادفتها متحدة غير متكثرة بوجه من الوجوه وإذا نظَرت قلوب السالكين بعيونها إلى تلك الذات صادفتها كذلك من غير فرق. ولكن ١٥ لكثرة نسب تلك الذات إلى الموجودات الاخر التي استحقت الوجود من تلك الذات الواجبة لا من أنفسها، احتاج السالكون بالضرورة إلى تغيير العبارات عنها حتى تتأدى حقائق تلك النسب، بواسطتها إلى أفهام الضعفاء فإذا نسبت تلك الذات إلى صدور[٧٩] الموجودات منها، وعلم أنها ممكنات وان الممكن لا بد له من واجب يوجده سميت عند اعتبار هذه النسبة التي بينها وبين الموجودات ٢٠ قدرة وربما سميت إرادة عند اعتبار نسبة أخرى، والقلوب لضعفها تظن مغايرة بين القادر والقدرة والمريد والإرادة. فهذا منتهى نظر العقول.

---

٧٨ ش: واجب الوجود.

٧٩ ش: صدر.

الفصل الثلاث والثلاثون
[مذهب السلف في الصفات]

فاعلمْ إذن أنَّ قولنا، الصفات لا عين الذات ولا غير الذات، حق وصدق، ولا يجوز المصير إلى خلافه لاحد من المسلمين أصلا. ومن صار إليه فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، فهو مذهب السلف الصالحين والأئمة المنقرضين، ولنا فيهم أسوة حسنة وقدوة مرضية، وقد اجمعوا على ذلك قاطبة للضرورة التي يعرفها المحققون من كبار العلماء دون أهل الظواهر من الرسميين. فمن صار إلى إثبات الذات ولم يثبت الصفات، كان جاهلا مبتدعًا؛ ومن صار إلى إثبات صفات مغايرة للذات حقيقة مغايرة، فهو ثنوي كافر ومع كفره جاهل.

الفصل الرابع والثلاثون
[الآيات التي تخبر بتكثُّر الصفات]

اعلمْ أنَّ الله تعالى وصف نفسه في كتابه الكريم غيرَ مرَّة بصفاتٍ متعددةٍ كالقدرة والمشيئة والإعزاز والإذلال والسمع والبصر والإحياء والإماتة؛ فقال عزَّ من قائلٍ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٠) وقال أيضًا: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ﴾ (سورة الإنسان، ٧٦/٣٠) وقال تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء﴾ (سورة آل عمران، ٣/٢٦) وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ (سورة الشورى، ٤٢/١١) وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. (سورة المؤمنون، ٢٣/٨٠)

فانظرْ، كيف تعدَّدتْ هذه الصفاتُ بتعدُّدِ نسب الموجودات إلى ذاته التي هي مصدرها، وكيف اتَّحدتْ[80] في ذواتها من الوجه الذي يلي الذات. ثمَّ قِسْ على ذلك سائرَ الصفات.

فما أراك تعجز عن إدراك الشيء من النسب في كلِّ صفة. إن كنتَ من الممارسين للغوامض العقليَّة واجتهدْ أوَّلا في فهم ما أقوله لك.

---

٨٠ ش+ هي.

الفصل الخامس والثلاثون

[تحليل بعض الصفات]

من المعلوم الظاهر الذي لا يجوز أن يتمارى فيه أنَّ الحقيقة الأزليَّة التي صدر منها الوجود إذا نظر[٨١] إليها واعتبر ما وجد منها وما لم يوجد منها بعد ولكنَّه يوجد في أجَله المسمَّى ووقته المعلوم كان لما وجد منها نسبته لا توجد تلك النسبة لما لم يصدر عنها بعد فهذا هو اختلاف الموجودات والمعدومات في النسبة إليه. ثمَّ الموجودات تختلف في نسبتها إليه فليست النسبة الملك إلى ذاته كنسبة الإنسان، ولا نسبة الإنسان كنسبة البهائم ولا نسبة البهائم كنسبة النبات ولا نسبة النبات كنسبة الأرض والسماوات ولا نسبة البياض كنسبة الحمرة ولا نسبة العزيز في الدنيا والآخرة كنسبة الذليل فيهما.

فاعلمْ أنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا نسبت إليه كل من عز بوجه من الوجوه اقتضت هذه النسبة أن يسمَّى معزا، وإذا نسبت إليه أهل الذلّ اقتضت النسبة أنْ يسمَّى مذلا ، وإذا نظر إليه من حيث هو مصور[٨٢] الحياة والموت، قيل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (سورة المؤمنون، ٨٠/٢٣) وإذا نظر إلى إحاطة علمه بالموجودات التي يدركها الإنسان بحاستي السمع والبصر قيل: ﴿هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ (سورة الإسراء، ١/١٧) وإذا نسبت إليه جميع الموجودات ورُؤيَ كل واحد منها متعلقا به ، قيل: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» ، وإذا نسبت إليه الموجودات الحاصلة منه والمعدومات التي لم تحصل منه بعد وجودها، قيل: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة المائدة، ١٢٠/٥) فالقدرة متلقاة من نسبة الموجودات والمعدومات إليه، والإرادة والمشيئة من نسبة الموجودات إليه فقط، وأما الإرادة فمتلقاة من الموجودات الملكوتية، وأما المشيئة فمتلقاة من الموجودات الملكية ، والمحيي والمميت متلقيان من نسبة حي وميت إليه، وقس بهذا القدر سائر الصفات.

---

٨١ ش: نسب.
٨٢ ش: مصدر.

الفصل السادس والثلاثون

[التكثُّر في الواجب محال]

ذواتنا ناقصة، وإنَّما يكملها تمام الصفات ولذلك تحتاج قدرتنا إلى الإرادة وإرادتنا إلى العلم فالقدرة لا تكفي في حصول المقدور إلا مع الإرادة فهذا في حقّنا. وأمّا ذات الله تعالى فهي كاملة لا تحتاج في شيء إلى شيء. وكلّ ما يحتاج في شيء إلى شيء فهو ناقص. والنقصان لا يليق بالموجود الواجب. وعلم الله بالشيء لا يغاير إرادته له ولا إرادته تغاير قدرته فذاته كافية للكلّ في الكلّ وهي بالنسبة إلى المعلومات علمٌ، وبالنسبة إلى المقدورات قدرةٌ، وبالنسبة إلى المرادات إرادةٌ؛ وهي واحدة ليس فيها إثنيّة بوجهٍ من الوجوه.

والإثنيّة لا يُتصوّر وجودُها في الواجب أصلا إذ لا يجوز أن يكون شيئان كل واحد منهما واجبٌ بذاته؛ وذلك لأنَّ كلّ شيئين فلا بدَّ [٨٣]بينهما مغايرة في شيء وإلا لم يتحقّق منهما إثنيّة، فلو كان في الوجود واجبان لافترقا في شيء ثمَّ كان ما يفترقان فيه لا يخلو إمّا أنْ يكون ضروريًّا لكلّ ما هو واجب بذاته أو لا يكون ضروريًّا. فلو كان ضروريًّا لكان موجودًا في الواجبيْن على التساوي. ولو لم يكن ضروريًّا لزم أن يكون وجوده معلّلا بسبب. وكلّ ما كان كذلك فالواجب يتنزّه عنه. فإنْ لم يكفِك هذا القدر في هذه المسألة فعليك طلبُها من كتب استوفى أصحابها كلامهم عليها؛ فإنَّ وقتي لا يتَّسع لأكثر من ذلك، وليس غرضي في هذا الكتاب تطويله بما فرغ العلماء من إقامة البرهان عليه، فليُطلب من معدنه.

الفصل السابع والثلاثون

[نسبة الموجود والمعدوم إلى الله واحدة]

فإنْ قلت: «فما قولك في النسبة التي بين الواجب وبين السماوات والأرض؟ مثلا؛ هل كانت موجودة في كلّ وقت أم لا؟ فإنْ كانت موجودة في كلّ وقت، فهذا يفضي إلى قدم السماوات والأرض؛ وإن لم تكن موجودة فكيف وُجِدتْ بعد العدم؟

---

٨٣ ش+ أن.

أَلِعِلَّةٍ ظهرتْ في ذات الواجب بعدما لـم تكن! وذلك محال قطعًا؟ أو لأثر ظهر في معدوم، كان مستمرَّ العدمِ إلى وقت مخصوص ولـم يكن يظهر هذا الأثر فيه وذلك أيضًا محال؟ أو وجد من غير ظهور شيء[٨٤] بعدما لـم يكن وذلك أيضًا محال؟» فاعلـمْ أنَّ العلماء قد أكثروا في ذلك والحقّ الذي لا ريبَ فيه وذلك أيضًا محال لأنَّه يستلزم الترجيحَ من غير مرجح. أو وجدت من غير ظهور شيء حادث بعدما لـم يكن وذلك أيضًا محال. فاعلـمْ أنَّ العلماء قد اكثروا ذلك فالحقّ الذي لا ريبَ فيه عند أولي البصائر أنَّ نسبة السماوات والأرض إلى الله كنسبة شيء هو الآن معدوم ويحصل وجوده غدًا مثلا، فليت شعري ماذا يقول القائل في معدومٍ ظاهرِ العدم إذا وُجد بعد ذلك؟ أيقول ظهر في القديم أثرٌ، أو ظهر في هذا المعدوم أثرٌ، أو وجد المعدوم من غير ظهور الأثر فكلّ ذلك محال؟ ولا يبقى إلا أن يقال: العلّة في وجوده هو الله وهو موجود على حالة واحدة أزلا وأبدًا، وإنَّما لـم يحصل منه وجود قبل ذلك، لفَقْدِ شرطٍ جعل وجودَه مستحقًّا للوجود ومستعدًّا لقبول نور الوجود الأزلي.

الفصل الثامن والثلاثون
[الله سبب لكلّ موجود]

المعدوم إذا أفاض عليه صورة الوجود كصورة فاكهةٍ مثلا كانت معدومةً ثـمَّ صارت بعد العدم موجودةً، فلا بدّ وأن يكون لوجود الصورة بعد عدمها سببٌ، والسبب في وجود كلّ موجودٍ هو اللهُ تعالى، فإنَّ كلَّ ما سواه ليس له ذاتٌ من حيث الحقيقة ولا وجودٌ فكيف يكون سببًا؟ نعم، يجوز أن يُسمّى سببًا في النظر العامّي كما يُسمّى موجودًا، فكما أنَّ كونه موجودًا[٨٥] ليس له أصلٌ [٨٦]من حيث يلي ذات القديمة فكذلك كونه سببًا لا يجوز أن يكون له أصل إلا من ذلك الوجه.

---

٨٤ ش+ حادث.
٨٥ ش: سببا.
٨٦ ب+ إلا.

فكما لا حقيقةَ لوجوده فلا حقيقةَ لسببيّته التي هي صفةٌ تابعةٌ من توابع الوجود. ولا يبقى ههنا إلا أن يُقال: «إن كان السبب هو اللهُ تعالى فلِم لا يوجد المسبَّب والسبب قائم[٨٧]؟» فنقول: لفقدِ شرطٍ من شروطه، وأنا أزيد ذلك بيانًا فالحاجة إليه داعية.

الفصل التاسع والثلاثون

[في نظريَّة الصدور]

٥

لعلَّك تقول: «من المعلوم الظاهر عند أهل النظر أنَّ الله تعالى لا يكون سببًا إلا لشيءٍ واحدٍ من الموجودات، ثمَّ يكون ذلك الشيء سببًا لوجود شيء آخر وهذا الشيء الثاني سببًا لشيء ثالث وهكذا يتداعى هذا الأمر إلى وجود الإنسان؛ والواحدُ[٨٨] من كلِّ وجه لا يجوز أن يصدر منه إلا شيءٌ واحدٌ.»

١٠ فاعلمْ أنَّ هذه مجازفة عظيمة من الكلام لا يجوز أن يطلق اللسان بأمثاله[٨٩]، فهو كفرٌ صريحٌ عند ذوي البصائر فلا فرقَ بين من يثبت قديميْن كلُّ واحدٍ منهما واجبٌ بذاته وبين من يثبت شيئيْن كلّ واحدٍ منهما يصلحُ للإيجادِ. لا، بل الحقّ الذي لا مريةَ فيه إنَّه ليس في الوجود موجودٌ يصلح أن يكون سببًا لوجودِ شيءٍ[٩٠] إلا اللهُ عزَّ وجلَّ.

١٥ وحقيقة السببيّة[٩١] ترجع إلى إيجاد صورة الوجود في معدوم ولا بدّ من وجود السبب حتى يوجد منه المسبَّب، فإنَّ المعدوم لا يصلح للسببيّة فلا بدّ للسبب من دوام الوجود حتى يصلح، لأن يحفظ داوم الوجود على المسبَّب. وليس لشيء من الموجودات الممكنة ذاتٌ ووجودٌ حقيقيٌّ؛ إنَّما الوجودُ الحقيقيُّ والذاتُ الواجبةُ للهِ تعالى. فما لا وجودَ له من حيث الحقيقة فكيف يكون سببًا لغيره؟ وما لا

٢٠ وجودَ لنفسه كيف يُوجِدُ غيرَه؟

---

٨٧ ش، ب: والسببية موجودة.
٨٨ ش: الأحد.
٨٩ ب: باثباته.
٩٠ ش، ب+ أخر.
٩١ ش: سببيته.

والسبب بالحقيقة ما كان كامل الذات بذاته، ثمَّ فضل فيه الوجود حتى فاض على المعدومات وخلع[٩٢] عليها صورَ الوجود. وأمّا ما لا يكون كاملا بذاته بل وجوده وصفات وجوده متعلقةٌ لوجود[٩٣] غيره وقائمةٌ به، فيكون في ذاته في غاية النقصان لا يستحقّ الإيجادَ ولا الوجودَ.

٥ الفصل الأربعون

[الإيجاد مخصوص بالواجب]

هذا له مثال في الأمثلة العامّيّة، فإنَّ الشمسَ إذا فاض منها النور عن القمر ليلا وفاض نور القمر على الأرض فلا شكَّ أنَّ نورَ القمر غيرُ مستحقِّ الوجودِ بذاته بل من الشمس، فكيف يصلح نور القمر مع هذا النقصان أن يُجعل سببًا
١٠ لوجود النور الفائض على الأرض؟ وليتأمَّلْ الناظرُ في هذا تأمّلا شافيًا وليستفتِ في ذلك نفسَه. فلا شكَّ في أنَّه لو نظر بعين الإنصاف رأى نورَ الشمس أولى بأن يجعله سببًا لنور الأرض من نور القمر، فإنَّ نورَ القمر إذا لم يكن له وجودٌ فكيف يكون له إيجادٌ والإيجادُ فوق الوجود بالضرورة والوجود قبل الإيجاد بالطبع؟ نعم، أن يُسمَّى نورُ القمر سببًا من طريق الاصطلاح فلا مشاحةَ في ذلك، ولكن
١٥ لا يجوز أن يغفل عن تبعيَّة نور القمر لنور الشمس، وأنَّه لو لا نور الشمس لم يكن لنور القمر أصلا وجودٌ. فالحقّ أنَّ من أثبت صلاحيةَ السبب لغير الواجب الحقّ بذاته القيّوم في صفاته، فقد أشرك وأثبت له نظيرًا، وكان كمن أثبت القمر مشاركًا للشمس في إيجاد النور ولا شكَّ أنَّ الواجب لو فرض عدمَه لم يبق في الوجود شيءٌ أصلا. فإذا لا يستغني عن الواجب شيءٌ في شيء[٩٤]، إذ ليس يبقى
٢٠ مع عدمه وجودُ شيءٍ. فالعجب كلُّ العجب من عاقل يفهم ذلك حقَّ الفهم ثمَّ يتوقَّف في كونه أولى بالسببية من غيره.

---

٩٢ ش: جعل.
٩٣ ش: بوجوده.
٩٤ ش+ أصلا.

الفصل الحادي والأربعون

[إن كان الواجب كاملا في السببيّة فلِمَ تأخّر وجود المسبّب عنه؟]

الحقّ أنَّ قولنا الواجب أولى بالسببية من غيره يشعر بنقصان عظيم في الواجب، فكأنه يشير إلى استحقاق غيره لشيء ولكنه أولى بالاستحقاق واستحقاق غيره لشيء محال إلا من ذاته الواجبة. ويبقى ههنا من الإشكال أن يقال: إن كان الواجب كاملا في السببية فلم تأخر وجود المسبب عنه؟ وتأخر وجود المسبب عن السبب الموجود بكماله محال وان كان ناقصا في السببية وتم ببعض الشروط سببيته فقد ثبت له شريك في كونه سببا، فما بالكم لا تجوزون تسمية غيره سببا مع اعترافكم بان وجود بعض الأشياء شرط لوجود البعض؟ وهذا إشكال يسهل علينا دفعه فإنَّا نقول: وجود الشرط إنَّما اثّر في استعداد المشروط للوجود لا في سببية ذات الواجب، كما أن انقشاع السحاب إنَّما يؤثر في استعداد الأرض لإشراق نور الشمس، وليس له أصلا تأثير في تكميل الشمس وليس لقائل أن يقول: انقشاع السحاب شرط تتم به سببية الشمس لوجود المشروط، وهو الإشراق الأرض وهذا غاية في البيان لا يتصور ورائها غاية في التمثيل وصناعته. ونور القمر إذا كان مستفادا من نور الشمس وهو في ذاته فانٍ وهالكٌ ومعدوم فلا نور من حيث الحقيقة إلا نور الشمس، فكان نور القمر هو نور الشمس حتى كأنه هو هو فكيف يجوز مع ذلك أن يجعل القمر شريكا للشمس في إفاضة النور؟ وكما لا نور إلا نور الشمس، فلا وجود إلا وجود الحق، وكأن وجود الموجودات كلها ليس خارجا من وجود الحق بل كأنه هو هو.

الفصل الثاني والأربعون

[كلُّ ما في الوجود فهو فانٍ من حيث الحقيقة]

كلُّ ما في الوجود فهو فانٍ من حيث الحقيقة ولا بقاء إلا لوجه الحيّ القيُّوم، كما أنَّ الصورة في المرآة فانية بالحقيقة ولا بقاء إلا للصورة الخارجة؛ هذا من حيث نظر العامي في القناعة بالأمثلة المحسوسة، وإلا فالصورة الخارجة مع المرآة في نظر العارف فانية أيضًا حسب فناء الصورة الداخلة في المرآة من غير تفاوت. ٥

الفصل الثالث والأربعون
[فوائد النظر في المرآة]

المرآة عبرة عظيمة لأولي الألباب، ومن نظر في المرآة نظرًا شافيًا ولم ينحل له كثير من المشكلات، فليس يستحقُّ أن يُعدَّ في زمرة العقلاء. ولعمري، لم ينظر في المرآة عاقل إلا ويعتوَّر عقله إشكالات عظيمة ويتشكَّك في جليَّات ١٠ الأمور ولكن تنحلُّ له مع ذلك مشكلات كثيرة. ولو لم يكن من منافع الحديد سوى المرآة لكان يكفي ذلك شاهدًا على صدق قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (سورة الحديد، ٢٥/٥٧) فكيف وفيه من المنافع ما تستحقر معها المرآة على أنَّ فيها من المنافع عجائب عظيمة كثيرة لا يمكن إحصائها للعقل. والمرآة بالحقيقة مرآة للعقلاء إذ يرون فيها صورة العقل العاجز ١٥ عن إدراك حقائق كثيرة فحسبك بها شاهدة على أن العقل معزول عن إدراك كثير من المحسوسات الظاهرة فضلا عن المعقولات الخفيَّة.

فمن أراد أن يشاهد عقله على صورته التي هو عليها من العجز فليكثر النظر في المرآة، فنعمت مبصرة للعقل بعجزه، وكذبه في دعاويه العريضة الطويلة لنفسه من إدراك حقائق الأمور الإلهية. ولست أنكر أنَّ العقل خلق لإدراك أمور عظيمة من ٢٠ الغوامض، ولكنَّه لا يعجبني إذا عدا طوره في دعواه وجاوز قدره وتخطاه.

الفصل الرابع والأربعون

[وجود الصورة المنعكسة في المرآة]

المرآة تظهر فيها صورة مطابقة للصورة الخارجة من طريق الانطباع والعقل في أوَّل النظر وبادي الرأي يفرق بين الوجود الخارج وبين الوجود الداخل، فأحدهما مستتبع والآخر تابع، ولا يتصوَّر أن يشكَّ أحد في ذلك. وحاصل الوجود للتابع يرجع إلى نسبة حاصلة على وجه مخصوص بين الصورة الخارجة وبين المرآة، فإذا طالع البصير تلك النسبة الحاصلة بينهما أدرك الصورة الداخلة التابعة، الموجودة من حيث الظاهر، المعدومة من حيث الحقيقة. ولا يشكُّ العقل في أنَّ وجود الصورة الداخلة ليس ذاتيًا، أعني أنَّه ليس موجودًا بذاته مستقلا بالوجود، بل هو موجود بالإضافة إلى أربعة أمور: وهو المرآة، والصورة الخارجة، والنسبة الحاصلة، ومطالعة البصر؛ لذلك فإذا بطلت هذه النسبة بطل وجود تلك الصورة الداخلة، وعلم العاقل أنَّ تلك الصورة لم يكن لها استقلال من الوجود. ولو[٩٥] تصوَّر وجود المرآة أو الماء أو ما يضاهيها في محاكاة الصور، بحيث كان يحاكي الصور ولا يتصوَّر عليه تغيُّر، لم يدرك أحد من الخلائق أنَّ تلك الصورة الداخلة، تابعة في الوجود للصورة الخارجة، وإنَّ هذه خاصية للمرآة والماء، لا يشاركهما فيه جسم من الأجسام كالطين والجص وأمثالهما. ولكن لما كانت الصور[٩٦] الخارجة تتغير، وكانت النسب الحاصلة أيضًا تتغير، وعند ذلك تتغير الصور[٩٧] الداخلة حسب تغير الصور[٩٨] الخارجة على منهاج واحد، لم يتخالج للعقلاء ريب في أن الداخلة تابعة الوجود الخارجة وان الخارجة متقدمة في الوجود على الداخلة تقدُّمًا رتبيًا لا زمانيًا.

الفصل الخامس والأربعون

[العقل يدرك الأمور المحصورة]

ليتأمل العاقل تأمُّلا صادقًا أنَّه لو لم تكن المرآة موجودة وحكي له ما يشاهده منها من انطباع الصور فيها، هل كان يصدق بوجود ذلك أم لا؟ فما عندي أن واحدا من أهل الإنصاف الناظرين بالبصائر الصافية النافذة

٩٥ ش: لا.
٩٦ ش، ي: الصورة.
٩٧ ش، ب: الصورة.
٩٨ ش، ب: الصورة.

يشك في انه كان يكذب بوجود ذلك، ويقيم على استحالته برهانا، وكان يستحيل أن يظهر له وجه الخلل في برهانه ذلك. فاعتبر الآن ولا تبادر إلى التكذيب فيما لا يدركه عقلك الضعيف. فإنَّ العقل خلق لإدراك بعض الموجودات كما أنَّ البصر خُلق لإدراك بعض الموجودات وهو عاجز عن إدراك المسموعات والمشمومات والمذوقات، وكذلك العقل يعجز عن إدراك كثير من الموجودات. نعم هو مدرك لأشياء محصورة قليلة بالإضافة إلى كثير الموجودات التي هو عاجز عن إدراكها. ثمَّ جميع الموجودات بالإضافة إلى العلم الأزلي كالذرة بالإضافة إلى العرش لا بل والذرة بالإضافة إلى العرش شيء ما والموجودات كلها بالنسبة إلى علم الله ليستْ شيئًا أصلا. وإنَّما ذكرت ذلك مخافة أن يبادر عقلك الضعيف ويقول: المعقولات لا تتناهى فكيف جعلتها محصورة متناهية؟ فإنَّ من كانت الموجودات كلها في نظره محصورة، لا بل ولا تكون شيئا فلا يكون عنده للحكم بأمثال ذلك خطر عظيم إنَّما امتناع الحصر في نظره يوجد في الصفات الأزلية كالقدرة والإرادة والعلم والكرم المفيض صور الموجودات عليها.

وهذا الكرم لازم للذات الواجبة، فإنَّها لما كانت كاملة وفوق الكمال، لا جرم كان الكرم المقتضي لإفاضة خلع الوجود على المعدومات لازما لها كما أن الوجوب لازم لها مثلا ولو خلت الذات عن هذا الكرم كانت ناقصة.

وهذا كما أن الشمس إذا أشرقت بها الآفاق كان ذلك من كمال إشراقها ولو لم تكن هذه الصفة موجودة في الشمس كانت ناقصة وكان يعوزها شيء من كمال نورانيتها ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. (سورة الروم، ٢٧/٣٠)

الفصل السادس والأربعون

[وجود العالم كالصورة في المرآة]

أولو الألباب يعتبرون بالمرآة من أوجه كثيرة ويكاد حصر تلك العبر يستحيل. ومما يعتبرون به انهم إذا نظروا فيها شاهدوا حقيقة قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (سورة القصاص، ٢٨/٨٨) وقوله عليه الصلاة والسلام: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[٩٩] وعلموا أن نسبة المُلك والملكوت في الوجود إلى وجه الحي القيوم نسبة الصورة الداخلة في المرآة إلى الصورة الخارجة إذ ليس للمُلك والملكوت حقيقة الوجود وإنَّما وجودهما تابع لوجود الوجه الحق[١٠٠] الحقيقي بالوجود. فإنَّ بعض الخلق لا بل أكثرهم يظنُّون أن الموجودات التي يشاهدونها في الدنيا لها وجود حقيقي فإذا بطلت النسبة الحاصلة بين أبصارهم وبين تلك الموجودات المحسوسة انكشف الغطاء عن أبصارهم وارتفع التلبيس فانتبهوا من نومهم وعلموا يقينا أن ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (سورة القصاص، ٢٨/٨٨) اللهمَّ إلا إذا قام موجود أزلا وأبدا بقيومية وجهه الباقي، فيكون القائم[١٠١] موجود الأبدية وجود القيوم وسرمديته جل الواحد القهار وحينئذ ينادى الخلق من بطنان العرش بقوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (سورة الغافر، ٤٠/١٦) ويشاهدون ذلك مشاهدة لا يبقى ورائها[١٠٢] ريب. ومن طالع هذه الألفاظ ولم يقف على حقائق معانيها فليتوقف في الإنكار فوراءها من عجاب الأسرار ما لا يفي بشرحه لسان ولا يعرب عن حقيقته بيان.

الفصل السابع والأربعون

---

٩٩ أورده العجلوني في كشف الخفاء، [٢/٢١٤]

١٠٠ ش+ الوجه الحيّ القيّوم.

١٠١ ش: عالم.

١٠٢ ش، ب: معها.

[إذا لم تستوفَ الشروط لم يحصل المشروط]

رجعنا إلى حديث السُرى، لا شكَّ أنَّ اللهَ تعالى خلق في الإنسان معنى يسمَّى في اصطلاح الخلق «قدرة» والإنسان يقدر بذلك المعنى على أنْ يتكلَّم بعد سكوته متى شاء.

٥ فالسبب الظاهر من حيث نظر عوام[١٠٣] لوجود الكلام بعد عدمه هو المعنى المسمى قدرة عندهم. ومعلوم أن القدرة تكون موجودة ولا يوجد المسبب وهو الكلام لا يخلل في السبب بل لفقد شرط وهو المشيئة فوجود الكلام من سببه المسمى قدرة في الاصطلاح موقوف على وجود شرط[١٠٤] المشيئة ومحال أن يحصل المشروط والشرط معدوم. والمحال لا يكون مقدورًا إذ لا يظهر أثر القدرة إلا في مقدور، كما لا يظهر ١٠ أثر البصر إلا في مبصَر، ولا أثر الشمّ إلا في مشموم، وكذلك في سائر المدركات. فإنَّ الكواكبَ المحجوبة بسحاب مثلا إذا لم يتمكَّن القوة الباصرة من[١٠٥] إدراكها لم يكن ذلك دليلا على خلل في الأبصار فكذلك إذا كان الشيء المعدوم محجوبا بحجاب عدم الشرط فإنَّ القدرة الأزلية لا توجده ما لم ينقشع سحاب عدم الشرط، لا لخلل في القدرة الأزلية بل لان المعدوم بعد محال الوجود، فإذا انقشع عنه الحجاب صار ١٥ ممكنًا ويصير من القدرة الأزلية واجبا، كما لو انقشع حجاب السحاب فصارت الأرض مستعدة لقبول نور الشمس عند الانقشاع.

الفصل الثامن والأربعون

[نسبة المحال إلى القدرة الأزليّة]

نسبة المحال بذاته إلى القدرة الأزليّة كنسبة المشموم مثلا إلى العين ٢٠ المبصِرة فلا يصير المشموم أبدا مبصرًا لا لخلل في قوة الإبصار بل لأنَّه ليس بمبصَر. والمحال لا يفيض عليه الوجود من القدرة الأزليّة، لا لخلل

١٠٣ ش+ الخلق.
١٠٤ ب+ وهو.
١٠٥ ب: بين.

في القدرة بل لأنَّ المحال غير مقدور. ونسبة المعدوم الممكن بذاته إلى القدرة الأزليّة كنسبة المبصَر المحجوب بحجاب عن البصر لا لخلل يرجع إلى قوة البصر فإنَّه إذا ارتفع الحجاب أدركته القدرة المبصِرة، فكذلك المعدوم الممكن بذاته إذا وجدت شروطه أوجدته القدرة الأزليّة ومادام يعوزه شرط فهو بعد ٥ محال الوجود بغيره لا بذاته.

والممكن بذاته ما يجب وجود شروطه والمحال بذاته ما يستحيل وجود شروطه. تأمل في ذلك تأمّلا شافيًا ولا تعترض عليه بتحذلقك فتزلّ قدمك وأنت لا تدري.

الفصل التاسع والأربعون

١٠ [معنى قولهم «أن الإمكان للممكن من ذاته»]

قد يقول أهل النظر إنَّ الإمكان للممكن من ذاته والاستحالة للمستحيل بذاته ومن ذاته، فيتخيّل الضعيف من هذه الألفاظ معان فاسدة ويخطي فيها بأنواع من الخطأ[١٠٦] فاحشة. وكيف يكون الإمكان للممكن من ذاته وذاته ليست من ذاته بل من غيره ؟! فإذا كانت ذاته من غيره كان الإمكان الذي هو صفة[١٠٧] أولى ١٥ أن يكون من غيره. فإنَّ استناد الذوات الموصوفة إلى موجدها، بدرجة واستناد الصفات التابعة إليه بدرجتين. هذا حكم الممكنات في إمكانها إذا وجدت، وأمّا الممكن الذي لم يوجد، فليس له بعد ذات ولا صفات فكيف يطلب له ولصفاته سبب والمعدوم لا يطلب له سبب وإنَّما يطلب السبب لموجود بعد العدم؟ وإنَّما ذكرت ذلك لأنَّ قولهم: الإمكان للممكن من ذاته له معنى صحيح ٢٠ وكثيرا ما تغلط الأوهام فيه فلتستعن بما ذكرته في الاحتراز من تغليط الوهم.

---

١٠٦ ش، ب+ فاحشة.
١٠٧ ش، ب: من صفاته.

وهذا بعينه هو الجواب عن قولهم: الاستحالة للمستحيل من ذاته فالمستحيل إذا لم يكن له ذات فكيف يطلب لاستحالته التي هي صفة تابعة سبب ؟! فإذا قيل العدم للمعدوم من ذاته كان له معنى صحيح عند الراسخين في العلم ولا يجوز أن يتوهم للمعدوم ذات ثمَّ يتوهم العدم شيئا موجودا لتلك الذات، ٥ فإنَّ العدم معناه معنى صفة والصفة لا توجد إلا بعد وجود الموصوف. فكيف يوجد العدم والمعدوم الذي هو موصوفه معدوم؟ فأوهام الضعفاء تغلط كثيرًا في أمثال ذلك والمحققون يتيسر عليهم الاحتراز عما يضاهي هذه الأغاليط.

الفصل الخمسون
[متى خلق الله الموجودات؟] ١٠

فالسماوات والأرضون وجدت حين وجدت من القدرة الأزلية ولم يكن قبل وجودها قبل ولا بعد حتى يقال لِم لم توجد قبل ذلك. فإنَّ القبل والبعد عارضان من عوارض الزمان والزمان لا يوجد إلا بعد وجود الأجسام. فكما لا يجوز أن يكون قبل وجود الأجسام فوق ولا تحت لانهما عارضان من عوارض ١٥ المكان، فكذلك لا يجوز أن يكون قبل وجود الأجسام قبل ولا بعد لان ذلك موقوف الوجود على وجود الزمان، والزمان موقوف على وجود الحركة والحركة موقوفة الوجود على وجود الأجسام، فكان الزمان ظرف الحركة كما أن المكان ظرف الجسم.

الفصل الحادي والخمسون

[معنى القول «العالم قديم بالزمان»]

قول القائل العالم قديم بالزمان هوس محض لا طائل تحته إذ يقال له: ما الذي تعني بالعالم؟ فإما أن يقول: أعنى به الأجسام كلها كالسماوات والأمهات، وإما أن يقول: أعنى به كلّ موجود سوى الله تعالى، وعلى هذا تكون العقول والنفوس ٥ والأجسام كلها داخلة تحت لفظ العالم، فإنْ قال: أعني بالعالم كلّ موجود ممكن من الأجسام وغيرها فعلى هذا يكون أكثر الموجودات المندرجة تحت لفظ العالم غير متوقف الوجود على وجود الزمان بل يكون بالضرورة سابق الوجود عليه فكيف يقال: العالم قديم بالزمان وأكثر موجودات العالم سابق الوجود على الزمان؟

وإن قال، أعنى بالعالم الأجسام كلها فلا يجوز على هذا الوجه أيضًا أن يقال: ١٠ الأجسام قديمة بالزمان فإنَّ معنى ذلك أنْ يقال الأجسام موجودة مذ كان الزمان موجودًا فيكون مشعرًا بأنَّ الزمان سابق على الأجسام في الوجود وليس كذلك فإنَّ الأجسام سابقة الوجود على الزمان والزمان متأخر الوجود عنها وان كان ذلك بالرتبة والذات. فإنْ قال قائل: ليس المراد بقولنا العالم قديم بالزمان ما ذكرتموه، فنحن لا نفهم من قوله إلا ذلك. وقد تكلَّمنا على ما فهمنا فأمَّا ما لم ١٥ نفهمه من مقاصده فالكلام عليه شأن العميان. فعليه أنْ يبين معناه على ما فهمه فإنْ كان حقًّا وصدقًا وافقناه في ذلك، وإلا تكلَّمنا عليه حسب الوسع والطاقة.

الفصل الثاني والخمسون

[نظر العارف في مسألة قدم العالم أو حدوثه]

الحقُّ في ذلك أن يُقال: كان الزمان موجودا مذ كانت الحركة موجودة ٢٠ وليس يجوز أن يقال: كانت الحركة موجودة مذ كان الزمان موجودًا.

فإنَّ ذلك وإنْ كان له وجه [١٠٨] فهو فاسد النظم جدا. وإذا لم يجز ذلك فكيف يجوز أنْ يُقال: كانت الأجسام موجودة مُذْ كان الزمان موجودًا ولو لم توجد الأجسام مثلا إلى الآن لعدم شرط ثمَّ وجودت الآن لوجود ذلك الشرط كان ذلك جائزا ولم يكن قبل وجودها قبل ولا بعد وحين وجدت فإنَّما وجدت كذلك ٥ من غير فرق. وان زعمت أنَّ الأجسام كانت موجودة مذ كان الحقُّ موجودًا فهو خطأ عظيم واعتقاد أكثر العلماء الذين يزعمون أنَّهم أربوا في صدق النظر على الأوَّلين والآخرين.

وممَّا لا بدَّ لك في هذا المقام من الإحاطة به أنْ تعلم أنَّ الأجسام لا توجد أصلا حيث يوجد الحقّ لا الآن ولا قبله ولا بعده، ومن صار إلى أنَّ العالم موجود ١٠ الآن مع وجود الحقّ فهو مخطئ خطأ عظيما فحيث الحقّ فلا مكان ولا زمان وهو المحيط بالزمان والمكان وسائر الموجودات. فإنْ سبق وجوده على كل شيء متساو، فإنَّه سابق الوجود على وجود العالم كما أنَّه سابق الوجود على وجود صورة هذه الكلمات المسطورة في هذا الكتاب مثلا من غير فرق أصلا. ومن فرّق بينهما فهو بعد في مضيق التشبيه ولمْ يتنزَّه عنده الحقُّ عن الزمان كما لم ١٥ يتنزَّه عن المكان عند العوام الذين يزعمون أنّه جسم مكاني كسائر المحسوسات. ومثل هذا الإيمان بالله بعيد عن الإيمان الحقيقي الحاصل للعارف في أوّل سلوكه ونظره. والله تعالى سابق على الزمان المستقبل حسب سبقه على الزمان الماضي من غير فرق وهذا يقيني عند العارف والعلماء عاجزون عن إدراكه بالضرورة. ولو لم يعجزوا عن إدراكه لما قالوا إنّ العقل الأول مساوق الوجود لوجود الحقّ.

---

١٠٨ ش+ ما.

كما لم يقولوا، إن صورة هذه الحروف المنقوشة بهذا القرطاس مثلا مساوقة في الوجود لله الحقّ المنزّه عن أمثال هذه الظنون وظنون الأنبياء والمقرَّبين. وانظر في ذلك نظرًا شافيًا فلا بدَّ وأن يحظى عقلك القاصر من معناه بنصيب[١٠٩] وإن كان فهم المراد الحقيقي منه موقوفًا على انفتاح عين المعرفة التي منزلتها من بصيرة العقل، منزلة الجنين من الرحم لا بل منزلة العقل من العين التي تراها موجودة لابن المهد. وسأزيد لذلك شرحا في موضع آخر أليق به لعل القاصرين يشمون من روائحه شيئًا.

الفصل الثالث والخمسون

[أزلية الله حاضرة مع أبديته]

الحقّ أنّ الله كان موجودًا ولم يكون معه شيء وهو الآن موجود وليس معه شيء ويكون موجودًا ولا يكون معه شيء فأزليّته حاضرة مع أبديّته من غير فرق. وحيث سلطانه فلا موجود غيره ولا أيضًا يُتصوّر وجود ذلك وحيث سلطنة كمال إشراق الشمس فلا يُتصوّر للخفافيش وجود أصلا. فخذ إليك هذا المثال العامّي على قدر ضعف عقلك القاصر وعلمك المزخرف واجتهد لعلّ فهمك الضعيف ينتفع بشيء من هذا المثال واحذرْ من التشبيه.

وليس وجود الحقّ زمانيًا حتى يحسن مثلا أن يقال: كان الله ولم يكن معه شيء. ولا يحسن أن يقال: يكون ولم يكون معه شيء. وإيّاك ثمَّ إيّاك ألف مرّة أنْ تطمع في الإحاطة بهذا الشيء الذي تسمعه بعقلك الذي نسبته من إدراكه نسبة الخفافيش من إدراك نور الشمس. فإمّا ألا تلتفت إلى ما في هذا الفصل وأمثاله أصلا ولا تتلقاها بردّ ولا قبول وإمّا أنْ تحفظ هذه الكلمات وتسأل الله سبحانه أنْ يحفظك ويخصّك بعين تدرك أمثال ذلك لا من اللفظ؛ فإنَّ ذلك محال، بل من وجه آخر.

---

١٠٩ ش، ب+ ما.

فإنْ أدركته من هذا الوجه فحينئذٍ تعلم قطعًا أنَّ لا عبارةَ في الوجود تؤدِّي حقَّ ما أدركته أحسن من هذا الذي ذكرته وتعلم قطعًا أنَّ من أودع أمثال تلك المعاني في الألفاظ المذكورة فهو ظالم غاية الظلم.

واعلمْ أنَّا إذا قلنا: «كان الله ولم يكن معه شيء موجود.» فهو متشابه. فإنَّ لفظ كان يدلُّ على الوجود؛ موجود في زمان ماضٍ، ٥ فإذا قلنا: «ولم يكن معه موجود.» فكيف يكون الزمان معه موجودًا؟ ومهما كان كذلك فلا فرق بين قولنا:» كان ولم يكن معه موجود.» وبين قولنا: «يكون وليس معه شيء.»[١١٠] فهذا غاية ما يمكن ذكره في مضيق الألفاظ والعبارات.

الفصل الرابع والخمسون

[معنى الأزليّة] ١٠

إذا انفتحت من باطنك روزنة إلى عالم الملكوت فكما اتَّفق طيرانك إليه شاهدت جلية الحال في ذلك كله واستغنيت عن سماع حكايته. ولعلَّك الآن تشتهي أن تعرف معنى الأزلية وكيفية الطيران إلى الملكوت فإنَّ ظاهر ذلك كالمحال. فاعلمْ أنَّ من ظنَّ أنَّ الأزلية شيئًا ماضيًا فقد أخطأ خطأ فاحشًا وهذا وهم غالب على الأكثرين. فحيث الأزلية فلا ماض ولا مستقبل وهي محيطة بالزمان المستقبل ١٥ كإحاطتها بالزمان الماضي من غير فرق، ومن اختلج في ضميره بينهما فرق فعقله بعد أسير في يد وهمه. فليس زمان آدم أقرب إلى الأزلية من زماننا هذا بل نسبة الأزمنة كلّها إلى الأزلية واحدة. ولعلَّ نسبة الأزلية إلى الأزمنة كنسبة العلوم مثلا إلى الأمكنة إذ لا توصف العلوم بكونها قريبة من مكان أو بعيدة من مكان بل نسبتها واحدة إلى كل مكان وهي مع كل مكان ومع ذلك فقد خلا عنها كلّ مكان. ٢٠ وهذا يسهل إدراكه على من نظر في العلوم العقلية قليلا وإنَّما يعسر على من قعد به القصور في عالم المُلك ولم ينفتح بعد عينه الجوالة في الملكوت.

---

١١٠ ب: موجود.

فلذلك ينبغي أن تعتقد نسبة الأزلية إلى كلّ زمان [111]وفي كل زمان ومع ذلك فهي محيطة بكل زمان وسابقة على الوجود على كلّ زمان ولا يسعها زمان كما لم يسع العلم مكان. فإذا فهمت هذه المعاني فاعلمْ أنَّه لا مغايرة بين الأزلية والأبديّة في المعنى أصلا بل إذا اعتبر وجود ذلك المعنى مع نسبته إلى الماضي ٥ من الأزمنة استعير له لفظ الأزليّة.[112]

فإذا اعتبر وجود ذلك المعنى مع نسبته إلى المستقبل استعير له لفظ الأبديّة ولا بدَّ من لفظتيْن مختلفيْن لاختلاف النسبتيْن وإلا ضلَّ الخلق في إدراكه عن سواء السبيل.

واعلمْ الآن أنَّا إذا قلنا: أراد الحقُّ تعالى ويريد، وعلِم ويعلم، وقدِر ويقدر؛ فهو ١٠ لمثل هذه الضرورة، وإلا فإذا لم يكن له ماضٍ ومستقبل فلا معنى للاختلاف في فعله تعلّق بالماضي والمستقبل. نعم إذا نُسبت الإرادة إلى زمان ماضٍ قيل «أراد» وإذا نسبت إلى مستقبلٍ قيل «يريد». وهذا مفتاح أسرار كثيرة ومشكلات عظيمة. وإذا كان كذلك فمن المحال الظاهر أنْ يصل السالك إلى الأزليّة من طريق العلم، نعم يجوز أنْ يدرك معناها بالعلم ولكن إدراك معنى الشيء غير الوصول إليه غير. ١٥ وإنَّما قلنا يستحيل الوصول إليها من طريق العلم، لأنّ المتفرغ للطلب العلمي في أسرار الزمان بعد، ولا وصول إلى الأزليّة إلا بعد حلّ ذلك الأسر.

الفصل الخامس والخمسون

[استمرار الموجودات في الوجود بسبب استمرار الإيجاد]

اعلمْ أنَّ إشراق الأرض بنور الشمس يستدعي نسبة مخصوصة بين الأرض والشمس ٢٠ لو بطلت تلك النسبة لبطل استعدادها لقبول نور الشمس ولو دامتْ هذه النسبة بينهما دام القبول وبقدر دوامها يدوم القبول. فأيُّ نفَس وجدتْ هذه النسبةَ وجد القبولَ،

---

١١١ ش، ب+ فإنّها مع كلّ زمان.
١١٢ ب+ الأبديّة.

وأيُّ نفَسٍ بطلتْ هذه النسبة[113] فقد[114] القبول. ثمَّ إنْ دامتْ هذه النسبة في أنفاسٍ متعدّدةٍ دام القبولُ في تلك الأنفاس على منهاجٍ واحدٍ. فيظنُّ القاصرون أنَّ الشعاع الموجود في نفس مثلا عين الشعاع الموجود في النفس الذي قبله أو بعده وهو خطأ عند أهل المعرفة الناظرين بنور الله بل الشعاع الموجود في كلّ نفسٍ مقتضى النسبة الموجودة في ذلك النفس والنسبة الموجودة في تلك الأنفاس متغايرة بالضرورة. ٥

ولذلك يجوز أن يحكم على نسبة واحدة من جملتها بأحكام لا يجوز الحكم بتلك الأحكام على نسبة أخرى كما يقال مثلا إنّ النسبة الفلانية كانت[115] مساوقة الوجود للحركة الفلانية فإنَّ النسبة التي بعدها لم تكن مساوقة الوجود لتلك الحركة وبهذا تتحقق المغايرة بين النسبتين قطعًا. فإذا كانت تلك النسبة متغايرة كان القبول في كلّ نفَس مقتضى نسبة أخرى على حدتها واستقلالها. ١٠

فاعلمْ أنَّ الشعاع الذي يكون موجودًا في نفَس مخصوص غير الشعاع الذي يكون موجودًا قبله أو بعده ولو بنفَسٍ واحدٍ نعم لما كانت هذه النسب المتغايرة واحدةً في كونها مقتضيةً للقبول على وتيرةٍ واحدةٍ ظنَّ بعضُهم[116] أنَّ هذا الشعاع الموجود في هذا النفَس عينُ الشعاع الموجود في النفَس الذي قبله وبعده، كمن يرى زيدًا وعَمرًا وخالدًا وبكرًا واحدًا في معنى الإنسانية فيظنُّ أنَّ كلَّ واحدٍ منهم عينُ صاحبه. وليتحقّق هذا فإنَّه يحتاج إليه من طريق ضرب المثال العامّي في الفصل الذي يلي هذا الفصل ويُبتنى عليه أصل عظيم. ١٥

الفصل السادس والخمسون

[استمرار الموجودات بسبب نسبتها إلى القدرة الأزليّة]

لا شكَّ أنَّ إشراق المعدوم بنور الوجود يستدعي نسبة مخصوصة بينه وبين القدرة الأزليَّة ولو دامت هذه النسبة دام قبول المعدوم لإشراق نور القدرة. ٢٠

---

١١٣ ط- (وجد القبولَ، وأيُّ نفَسٍ بطلتْ هذه النسبةَ).
١١٤ ش، ب: بطل.
١١٥ ش+ النسبة.
١١٦ ش، ب+ الضعفاء.

ولو بطلت النسبة بطل القبول وبقدر دوام النسبة يدوم القبول. والقبول في كلّ نفَس مقتضٍ النسبة الموجودة في ذلك النفَس والنسب تتغاير فإذا القبول الذي في هذا النفَس مثلا غير القبول الذي في ذلك النفس وإنْ تشابهتْ أنفاس متعدِّدة في القبول فذلك لتشابه النسب المتغايرة واتحادها في معنى الاقتضاء للقبول.

٥ فإذا رأيت الشيء مثلا موجودا سنين كثيرة على منهاج واحد فذلك لدوام النسبة المقتضية للوجود في تلك السنين نفسا بعد نفس. فاعلمْ يقينًا أنَّ الوجود في كلِّ نفس مقتضي النسبة الموجودة في ذلك النفس فالوجود الذي تراه في هذا النفس للسماء والأرض وسائر الموجودات غير الوجود الذي تراه فيما بعد ورايته فيما قبل. نعم لما كانت النسب المتغايرة المقتضية لوجود تلك الموجودات واحدة،

١٠ في كون كل نسبة منها مقتضية للوجود وقع الوهم للأولين من عند آخرهم في هذا الغلط إلا ما شاء الله وقليل ما هم.

وهذا الفصل غامض شديد الغموض، صعب المتناول عسير الدرك ممتنع على الأفهام وزلل الأقدام في أمثاله بكثير والعقل لا يتصوّر له إدراك ذلك إلا بتأمُّلٍ عظيمٍ ونظرٍ شافٍ وبحثٍ وافٍ وذكاءٍ عظيمٍ وجدٍّ بليغٍ. نعم يدركه العارفون

١٥ بعين المعرفة في أوّل نظرة من غير احتياج إلى تكلّف.

ومن استعان من العقلاء في فهم هذا الفصل بنور السراج الذي يتجدّد له في كلّ نفَس وجود آخر سهل عليه إدراكه. فإنَّ الصبيان يظنُّون أن نور السراج الذي يرونه مشتعلا على منهاج واحد هو شيء واحد، والعقلاء يعلمون قطعًا أنّه في كلّ نفَس تتجدّد له صورة أخرى، وهذا مقتضى نظر العارف في كلّ موجودٍ سوى

٢٠ الله. ولعلّ عقلك محيط بشيء من ذلك إذا أدمتَ النظر إليه ووقّفتَ فهمَك عليه، والغالب أنَّ هذا الباب لا ينفتح للعقل.

الفصل السابع والخمسون

[حصول الموجودات عن الواحد وتكثّرها]

اعلمْ أنَّ الله كان موجودًا ولـم يكن معه شيء ولا أيضًا يتصوَّر أبدًا أنْ يكون معه شيء إذ ليس شيء مع وجوده رتبة المعية، فالله عزَّ وجلَّ ليس معه شيء ولكنه مع كل شيء ولولا معيته مع كل شيء لما بقي في الوجود موجود. والموجودات في حصولها ٥ منه لها ترتيب: فبعضها متقدم كالمفرد وبعضها متأخر كالمركب. هذا إذا نظرنا بنظر العقل فهو صحيح فإذا نظرنا بنظر المعرفة فهو خطأ والعقل لا يدرك حقيقة ذلك أصلا فتراه إذا سمع أمثال ذلك يفور فائرة ويثور ثائرة ويقول: الشيء الواحد كيف يكون صحيحًا وخطأ وعليك أنْ تُسكن فورته بهذا المثال العامّي إنْ سكن به وإلا فدونك ١٠ وتكذيبه والإنكار عليه ما دمت أسيرًا في عالم العقل محبوسًا في مضيقه.

وهذا المثال العامّي هو أن الصبي إذا حكم على شخصين مثلا بان أحدهما أقرب إليه من الآخر فقال له بعض البالغين من أهل التحقيق حكمك هذا صادق إذا نظرت بنظر الحسّ فأمّا إذا نظرت بنظر العقل علمت أنَّ حكمك خطأ فإنَّ الأقرب في نظر الحسّ هو الأبعد في نظر العقل. فإنَّ قول العاقل[١١٧] صحيح ونظر الصبي صحيح عند ١٥ العاقل وتكذيبه للعاقل في دعواه خطأ. وهذا التكذيب ضروري له لا يتمكَّن من اعتقاد غيره وطريق تفهيمه مسدود على العاقل. فإذا لا بدَّ من بيان صدور الموجودات من القدرة الأزلية بطريق يمكن للعقل إدراكه وان كان ذلك خطأ في[١١٨] العارف. وقد أكثر في بيانه العارف[١١٩] وحاصلهم فيه يرجع إلى ظنون يرجمونها.

والحقُّ في ذلك على ما يلوح لعقولنا أن يقال: إن الله عزَّ وجلَّ فاض منه الوجود[١٢٠] أولا ٢٠ على الموجود الأول وهو أقرب الملائكة إليه وأقرب الموجودات كلها في نظر العقل

---

١١٧ ش: القائل.
١١٨ ش، ب+ نظر.
١١٩ ش، ب: النظار.
١٢٠ ش: الجود.

ويشبه أن يكون الروح المذكور في قوله تعالى: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا﴾ (سورة النبأ، ٣٨/٧٨) عبارة عنه. وكان وجود هذا الروح شرطا تم به استعداد شيء آخر لقبول نور القدرة الأزلية فكان استعداد هذا الشيء الثاني بشرط وجود الروح كاستعداد الروح من غير شرط. ثمَّ كان وجود هذا الثاني شرطا في وجود شيء ثالث ويجوز أن ٥ يكون شرطا في وجود شيئين ثالث ورابع. وليس لعقولنا الضعيفة أن تدرك حقيقة هذا الأمر على ما يجب إلا أن لها أن تدرك جواز الوجهين المشار إليهما: وهو أن وجود الثاني يجوز أن يكون شرطا في وجود شيئين ويجوز أن يكون شرطا في وجود شيء واحد وهو أنْ يكون باعتبار ذاته على حدتها شرطا لشيء ويكون باعتبار ذاته مع اعتبار الروح شرطا لشيء آخر وكلا الوجهين معقول. وهذا القدر يكفيك في كيفية صدور ١٠ الموجودات الكثيرة من الواحد الحقّ فإنَّه إذا جاز أنْ يكون الثاني شرطًا لشيئيْن جاز أنْ يكون كلّ واحدٍ من الشيئيْن شرطًا لوجود ثالثٍ ورابعٍ من الموجودات.

الفصل الثامن والخمسون
[الوسائط بين الواجب والفلك الأول]

الحكم بأنّه لم يتوسّط بين الواجب الحق وبين السماء الأولى وهو الفلك ١٥ الأطلس، إلا ثلاثة من الملائكة واحد منهم روحاني واثنان كروبيان حكم مظنون غير مستقيم. فربما كان بينهما [١٢١]ألف من الملائكة أو أكثر لا بل هو الحق عند أرباب المعرفة. نعم لمّا لم يتمكّن العلماء في العروج إلى الأول من الاستدلال بحركة السماء الأولى على غير هذه الثلاثة لا جرم لم يطلبوا في نزولهم شيئًا لغير تلك الثلاثة وهذا مظنون قطعا لا يجوز أنْ يقنع به[١٢٢] في العلوم النظرية. وحُكمنا ٢٠ بأنّ الوسائط المتوسّطة بين الواجب وبين السماء الأولى كثيرة فهو حقّ وصدق

---

١٢١ ش: الوسائط.
١٢٢ ش: بأمثاله.

ويشاهده أهل المعرفة لا من طريق الاستدلال بل من طريق آخر. ولو كان من طريق الاستدلال لأمكنَ ذكرُه، فلمّا كان موقوفًا على انفتاح عين المعرفة في الباطن لم يمكنْ ذكرُه. بلى، لما كان إمكانُه معقولا نبّه عليه بقدر الوسع. وممّا يعين العقل على التصديق بذلك أنْ يكرّر نظره في الكواكب الموجودة على ٥ السماء الثامنة المعبّر عنها في لسان الشرع بالكرسي.

الفصل التاسع والخمسون

[كلّ موجود دائم الوجود فإنَّه يتأثّر بالحيّ القيّوم]

كلّ موجودٍ دائم الوجود فإنَّه يتأثّر[١٢٣] بالحيّ القيّوم دائمًا، ويتجدّد له في كلّ نفَس وجودٌ آخر شبيهٌ بما قبلَه، وأهل المعرفة يشاهدون ذلك صريحًا، والعالم[١٢٤] ١٠ يتعذّر عليه إدراكُه. فكرّرْ نظرَك فيما ذكرته من قبل فربما تتجلّى لك حقيقة هذا الأمر والله تعالى لا يجعل ذكر ذلك وبالا عليَّ وعلى من يطالعه ويجعل نفع الخلق به أكثر من الضرر. ورحم اللهُ عبدًا طالعه بعين المعرفة وشمّر لفهمه ذيله وترك التعصّب ومراقبة الجوانب والمداهنة في المذاهب بل ينبغي ألّا يحمله على مطالعته والنظر فيه إلا طلب الحقّ بطريق اليقين لكون سعادة النفس متعلّقة به. ١٥ فإنَّ هذه المعاني التي ذكرتها في هذه الفصول مشاهدة بالذوق مشاهدة لا تقصر عن مشاهدة العقل للأوّليّات إلا أنّه لم يمكن التعبير عن تلك المعاني إلا بهذه الألفاظ. والحقّ الذي لا ريب فيه أنّ من عرف اللهَ تعالى كَلَّ لسانُه، أيْ لم يجدْ عبارةً تؤدِّي حقَّ المعنى الذي فهمه ذوقًا إلى الأفهام.

---

١٢٣ ش: يتكثر.

١٢٤ في الأصل: العلم.

الفصل الستون

[ترتيب الموجودات في نظر العالم والعارف]

الناظرون بعين العقل يرون للموجودات في ذواتها ترتيبا ويرون بعضها أقرب إلى الأول الحق من البعض بالضرورة، ولا يُتصور أنْ يكون إلا كذلك. ويرون مصدر الوجود واحدا ويرون الموجودات الصادرة عنه كثيرة فلا جرم يحتاجون إلى تكلّفات باردة في بيان كيفية صدور الكثرة عن الوحدة.

فأمَّا الناظرون بعين المعرفة فلأنّهم لا يرون للموجودات ترتيبًا أصلا، ولا يرون بعضها أقرب إلى الحقّ من البعض، بل يرون هويته مساوقة لكلّ موجود حسب مساوقتها للموجود الأوّل في نظر العلماء من غير فرق. وما لم يصل الرجل إلى هذا المقام فلا يتجلّى له حقيقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ (سورة فاطر، ٣٥/٤١)

ولا قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ (سورة البقرة، ٢/١١٥) وإنَّما يحظى من سماع أمثال هذه الآيات بسماع حروف وكلمات.

ثمَّ أهل المعرفة لا يرون مساوقته للموجودات كما يراها العلماء للعقل الأول. ويرون أعني العارفين، مصدر الموجودات كثيرًا ويرون الموجودات كلّها كالذرة بالنسبة إلى عظمته. ومن كان ينظر إلى الله تعالى وأفعاله بهذه العين، فلا يحتاج إلى العلم بكيفية صدور الكثرة عن الوحدة فيكون كلّ ما ذكّرته في هذا المعنى عنده فضولا مستغنى عنه. فاجتهد أنْ تصدق بوجود عين في باطن الأدمي إذا انفتحت كانت مدركاتها من جنس ما أشير إليه في قولنا: إن الهوية الأزلية مساوقة الوجود لوجود كلّ موجود، فإنَّ العقل قاصر عن إدراك ذلك فلا محالةَ يرى بعض الأشياء أقرب إلى الحي القيوم من البعض.

ومهما أدركت شيئا واستحال عندك أن تعبر عنه إلا بالعبارات التي يشتمل عليها هذا الفصل من مدركات العارف فاعلمْ يقينًا أنَّ عين المعرفة قد انفتحت في باطنك، وحينئذ تصير علومك المحصلة كلها بذورا لثمرات المعارف.

الفصل الحادي والستون

٥ [الفرق بين العلم والمعرفة]

لعلّ نفسك تتشوّق إلى إدراك الفرق بين العلم والمعرفة، فاعلمْ أنَّ كلَّ معنى يُتصور أن يعبر عنه بعبارة تطابق ذلك المعنى حتى إذا شرحه المعلّم للمتعلّم بتلك العبارة مرة أو مرتين أو أكثر ساواه في العلم به فهو من العلوم. وكلّ معنى لا يمكن التعبير عنه[١٢٥] أصلا اللهمَّ إلا إذا كانت الألفاظ متشابهة فهو من المعارف. هذا هو ١٠ اصطلاحي في هذا الكتاب وهو الغالب على أرباب القلوب. وقد يطلق لفظ العلم ويراد به معنى المعرفة وهو كثير في القرآن. قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ (سورة العنكبوت، ٤٩/٢٩) وقال أيضًا: ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ﴾ (سورة آل عمران، ١٨/٣) وقال أيضًا: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (سورة الكهف، ٦٥/١٨)

١٥ والعلوم اللدنية لا تُتصور عنها التعبير بالعبارات مطابقة لها أصلا ولذلك لما أراد موسى أن يحصلها من الخضر بطريق التعليم أبى إلا أن قال: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (سورة الكهف، ٧٠/١٨) أي حتى تنفتح عين المعرفة في باطنك فحينئذ تستيقن حقيقة ما رأيته من قبل. وأما قبل انفتاح تلك العين فلا سبيل لك إلى إدراك تلك الحقائق إلا بطريق ٢٠ التأويل كما قال له حيث صمّم العزم على فراقه: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (سورة الكهف، ٧٨/١٨)

---

١٢٥ ش، ب: لا يتصوّر.

ولو صبر إلى وقت انفتاح عين المعرفة لكان يُحدث له ذكرًا، وهو كناية عن مشاهدة حقيقة التفسير بحيث لا يبقى إلى التأويل حاجة. ولهذا المعنى قال النبي صلَّى الله عليه وسلَّم: «رحم الله أخي موسى فلو صبر مع الخضر لرأى كثيرًا من العجائب.» ولعلّ الحديث من حيث اللفظ يخالفه.

٥ الفصل الثاني والستّون

[تعليم الحقّ]

علوم الأنبياء لدنّيّة فمن كان علمه مستفادًا من الكتب والمعلِّمين فليس هو من ورثة الأنبياء في علمه ذاك إلا من طريق التوسّع في العبارة عن لفظ الميراث. وعلوم الأنبياء لا تستفاد إلا من الله عزَّ وجلَّ كما قال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي ١٠ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (سورة العلق، ٩٦/٣-٥) ولا تظنَّنَّ أنَّ تعليمَ الحقِّ يختصُّ به النبيُّ فقط. قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٨٢) وكلّ من وصل في سلوكه إلى حقيقة التقوى فلا بدَّ أنْ يعلِّمَه الله ما لم يعلم ويكون معه كما قال: ﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (سورة النحل، ١٦/١٢٨) وأمثال هذه العلوم إذا عُبّر عنها بعبارات متشابهة لم يكن فهم ١٥ حقائقها من تلك العبارات إلا لمن حصل له ذلك بطريق الذوق عن تعليم الحقّ. ولذلك قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (سورة العنكبوت،(٢٩/٤٣)

وكلّ من لم يتعلّم من الله تعالى بغير واسطة فهو ليس من العالمين المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٤٣) وهذا في المثال العامّي ٢٠ يشبه كلام العشّاق في الوصال والفراق وغيرهما من عوارض العشق وأحوال ما يتعلّق به،

فإنَّ الأسماع إذا قرعت بكلام العشّاق لم يفهم معناه حقّ الفهم أحد اللهمَّ إلا من لابس حالة العشق ذوقًا. وهذا معنى قول الجنيد رضي الله عنه: «كلامنا إشارة.» ولا يُتصوّر أن يكون للعارف كلام إلا كذلك، ومن تصرّف في معانيه ببضاعة عقله وعلمه زلّت قدمه. ورحم الله أبا العباس بن سُريج حيث سأله بعض تلامذته عمّا يقول الجنيد فقال له: «رموز القوم لا نعرفها نحن، إلا أنَّ لكلام الجنيد نورًا.» والغالب أنَّ ابن سُريج كان من أهل الذوق فإنَّ كلامه هذا يعرب عن ذلك إلا أنَّه غلب عليه علم الظاهر، وأمثاله كثيرة فيما بين العلماء.

الفصل الثالث والستّون
[أقسام المسائل العقلية]

المسائل العقليّة تنقسم بوجه من الوجوه إلى ما لها وجهان وإلى ما لها ثلاثة أوجه. وقد يظنّ بالمسائل التي لها ثلاثة أوجه أنّها من المعارف وليست من العلوم وهو ظنٌّ فاسد؛ وإنّما ذكرت هذا الفصل لتدفع أمثال هذه الظنون عن نفسك. أمّا القسم الأوّل وهو الذي يكون له وجهان:

أحدهما: إلى نطق المعلِّم المرشد.

والثاني: إلى فهم المتعلِّم المسترشد فَكعلمِ النحو والطب والحساب وغير ذلك.

وأمَّا القسم الثاني فهو الذي له ثلاثة أوجه:

أحدها: إلى نطق المفيد.

والثاني: إلى فهم المستفيد.

والثالث: إلى ذوقه.

وأكثر ما يتعلّق من المسائل بالصفات هذا حكمها وكذلك ما يتعلّق بأحكام النفس كالحكم بكونها موجودة قبل البدن وأحوالها بعد الموت فهي كذلك.

وأمثال هذه المسائل يصعب إدراكها على العقل لا سيّما حقيقة صفة العلم الأزليّ وكيفيّة إحاطته بالجزئيَّات وصفة القدرة الأزليَّة،

وحقيقة معنى الإيجاد والاختراع في حقّ الله وكيفيّة معنى المشيئة الأزليَّة والفرق بينهما وبين الإرادة. وأكثر العلماء المتبحِّرين يظنُّون أنَّهم أحاطوا علمًا بمعاني هذه الصفات وإنَّما حظُّهم منها على الحقيقة تشبيه فقط.

الفصل الرابع والستُّون

[أنفع طرق التعلُّم]

٥

لعلَّ الأليق بحال المستفيد في أمثال المسائل التي سبقت الإشارة إليها ألَّا يستكثر فيها من حفظ الألفاظ المذكورة في الكتب إذ الغالب أنَّ الاستكثار منها لا يزيده إلا تحيُّرًا.

إذ طلب الحقائق من الألفاظ المنقولة والمستعارة والمتشابهة والمشكَّكة في غاية العسر بل ينبغي أنْ يقتصر على قدر يسير من ألفاظ يلتقطها من أفواه العلماء ومن كتب المتأخِّرين المحقِّقين دون المتقدِّمين. فإذا حفظ ذلك فليصرف العناية[١٢٦] إلى ترديد النظر فيه، وليترك النظر في الكتب القديمة رأسًا إلى وقت يشير إليه المعلّم بذلك.

١٠

الفصل الخامس والستُّون

[الاستعانة من أهل الكمال]

١٥

ينبغي لطالب الحقِّ إذا حفظ القدر الذي يتيسَّر له من تلك المسائل أن يعاود النظر فيه مرَّة بعد أخرى ويجالس أهل الكمال العلمي إن وجدهم وظفر بخدمتهم ما أمكنه، ويعرض عليهم كلَّ ما يسنح له من خواطره في تلك المسائل. وينبغي أن يستعين على إدراك تلك الحقائق بتصفية الباطن فعساه يدركها بنفسه.

---

١٢٦ ش، ب+ بكليّته.

فليس في قوَّة الواصل الكامل أن يرد به مشربه العذب ما لم يقوِ بنفسه على الورود، وإنَّما الذي إليه من أمره هو إرشاده إلى كيفيَّة السلوك فقط. ومهما امتثل من أمره في الإرشاد لم يحرم الوصول غالبًا، إن كان من أهله.

الفصل السادس والستّون

٥ [مصاحبة أهل الذوق معين للطالب على تصفية الباطن]

نِعم المعين للطالب على تصفية الباطن مصاحبةُ أهل الذوق ومجالستُهم وخدمتُهم من صميم القلب. وأعني بأهل الذوق أقوامًا طهروا بواطنَهم من رذائل الأخلاق حتى فاضتْ عليهم من ألطاف الحقِّ ما تستحيل عنه العبارةُ، وهم القوم لا يشقى بهم جليسُهم، وقلَّما تخلو بقعةٌ من البقاع منهم.

١٠ الفصل السابع والستُّون

[السعادة القصوى للطالب]

السعادة كلّ السعادة للطالب أن يتفرَّغ بكليَّة روحه وقلبه لخدمة واصلٍ منهم فني في الله ومشاهدته، إذا أفنى عمرَه في خدمته أحياه اللهُ حياةً طيِّبةً ليس منها مع العلماء سوى رسمٍ واسمٍ، فأمَّا حقيقة معناها ومسمَّاها فلا يوجد إلا عند قوم ١٥ أُرضعوا بلبان الكرم في حجر العناية يومًا بعد يوم.

الفصل الثامن والستُّون

[الأمور المستفادة من أهل الكمال]

لولا أنَّ الجود[١٢٧] الأزليّ أخذ بضعي ووفَّقني لخدمة شيخ كبير منهم، لما تُصوّر لي الخلاص عن تلك الضلالات التي رُسخت في الباطن من ممارسة ٢٠ العلم، ولما انتفعت أيضًا بخدمة الشيخ الإمام أحمد الغزّالي رضي الله عنه

١٢٧ ب: الوجود.

إذ لولا ملازمتي لعتبة باب ذلك الشيخ لكان يتراكم في القلب على تعاقب الأيّام والليالي صفات مذمومة يتعذّر الخلاص عنها أو يستحيل، كما أراه في حقّ الأكثرين ممّن حبسه التقدير في مضيق العلم والعقل، ولا تتّسع حوصلته للتصديق بما وراء ذلك من الجليّات بله[١٢٨] الغوامض من الخفيّات، والله تعالى هو المشكور على إفاضته عليّ
٥ نِعمًا لا أحصيها ولا أستحقُّها وبه اعتمادي وعليه توكُّلي في إتمام تلك النعم.

الفصل التاسع والستُّون

[كيف يستطيع السالك أن يعرف أهل الكمال]

لعلَّك تقول كيف يظفر الطالب بمثل هذا الشيخ؟ وكيف يتيسّر للمبتدي متابعة المنتهي ومعرفته، وليس يجوز للسالك أن يزن الواصلين بميزان نظره، ولا أيضًا
١٠ يجوز له أن يقلِّد واحدًا بمجرَّد دعواه؟ فبماذا يعلم أنَّ الشيخ الفلاني مثلا مُدَّعٍ وليس وراء دعواه طائل؛ أو هو كاملٌ منتهٍ بلغ مبلغًا يجوز أن يُقتدى به؟ فاعلمْ أنَّ هذا سؤال عن أمر لا يكون للخوض في جوابه عظيم فائدة، فإنَّ كلَّ واحد من الطالبين تتسلّط عليه أسباب ما قُدّر له تسليطًا لا يجد عنه محيصًا. وبقدر ما قُسم لكلّ واحد من الرزق تسلَّط عليه الطلب وتيسَّر له الظفر بمن يهديه الطريق.
١٥ فكما أنَّ المتعلّم يكون طلبه ومرشده على قدر ما رُزق في الأزل من العلم كذلك هاهنا من غير فرق.

الفصل السبعون

[علامات المدَّعين]

فإنْ قلت فهل من علامة تميّز بها المدّعيّ عن الواصل فأقول: العلامات
٢٠ كثيرة والتعبير عنها عسير والإحاطة بجميعها متعذّرة غاية التعذُّر. فأمّا علامة تطرد وتنعكس فيكاد يستحيل وجودها وليس عندي عن إمكانها خبر،

١٢٨ ش: فضلا.

فعليك بالجدّ في الطلب فإنَّه يحلُّ لك كلَّ مشكلٍ، ويجذب بضبعك في كلِّ ملمَّةٍ مدلهمَّةٍ، وينقذك من كلِّ خطبٍ هائلٍ، ويخلصك من كلِّ داهيةٍ معضلةٍ. ومن لم يذقْ لم يعرفْ. ومن لم يجرِّبْ لم تنفعْه تجربةُ غيرِه. ومن لم يأكلْ لم يشبعْ بمحادثة من أكل. ومن لم يشربْ لم يروِ عطشَه كلامُ من شرب.

الفصل الحادي والسبعون
[عجب العلماء واستغنائهم عن العارف]

إيَّاك وأنْ تغترَّ بعلمك فتشتغل بالسلوك من غير قائد يقودك في الطريق فتضلّ من حيث لا تدري ويكون مثالك مثال صانع متبحّر في صنعته فاشتغل بالعلوم النظريّة وتحصيلها من نفسه فاستنكف من متابعة غيره من النظار ولم يكن لذلك مستندًا إلا عجب أثمره تبحّر في صنعته. فمن الضلالات الغالبة على أهل العلم أنَّهم إذا خمروا علم السلوك ظنّوا أنّهم يستغنون عن عارف بمهالك الطريق يهديهم في كلِّ خطوةٍ.

وقلَّما ينجو أحد من النظَّار والعلماء من هذا العجب الذي ثمرته الاستنكاف من المتابعة لأهل المعرفة، إذ يبعد من العالم الذي يرى الكمال فيما حصله من العلم أن يرى الجاهل بذلك فوق نفسه وذلك لظنِّه الفاسد المغلِط بأنّ كلّ كمال فهو من المسائل التي تلقَّنها وتلقَّفها فلا يعلم وراء ذلك شيئًا. والله الذي لا إله إلا هو حلفةً صادقة ويمينًا برّة أنَّ العالم وإن انتدب لخدمة بعض المشايخ فما دام يُفرّق بين نفسه في الحاجة إليه وبين غيره من جهّال أقرانه فهو بعد في تضييع زمانه غير مقبل على شأنه. ولا تفهم هذه المعاني أصلا إلا إذا صرت لها بعد التجربة أهلا. وإن ظننت أنَّك تصل إليها قبل التجربة فأنت بعد ضحكة الشيطان وفي مثلك قيل:

وإِذَا رَأَى الشَّيْطَانُ غُرَّةَ وَجْهِهِ   حَيَّا وَقَالَ فَدَيْتُ مَنْ لا يُفلِحُ[١٢٩]

---

١٢٩ أورده الثعالبي في التمثيل والمحاضرة.

الفصل الثاني والسبعون

[تقدُّم الله على الموجود الأول باعتبار ذاته وشرفه]

اعلمْ أنَّ هذه الفصول المعترضة في أثناء الكلام كثيرة النفع ولكن عند الأقلِّين. والمعجب بعقله وعلمه لا يتأثّر بها غالبًا ولا ينتفع وإذا كان ذكرها عرضًا فالأولى بي أنْ أقتصر على القدر المذكور وأقول: قد ظهر أن قول القائل ٥ العالم قديم بالزمان هوس محض فنظمه في غاية الفساد. وبعد ذلك ربّما يقول: هبني سلمت ذلك في السماوات والأرض فما تقول في الموجود الأوّل: هل كان مساوق الوجود لوجود الباري تعالى؟ فإنْ قلت نعم فقد أثبت معه قديمًا وإن قلت لا فنفرض الكلام فيه ونقول: إنْ لم يكن موجودًا ثمَّ وجد فلماذا لم يكن موجودًا قبله، والسبب بكماله موجود؟ وحين وجد فهل ظهر سبب أم لا؟ ١٠ فإنْ قلت لا فهو محال إذ يلزم منه حدوث حادث بلا سبب وإنْ قلت نعم ظهر سبب فظهور سبب معدوم استمرّ في العدم على وتيرة واحدة ثمَّ ظهر وجوده محال، لأنَّ ظهوره في ذات الواجب محال ولا موجود ثمَّ غير الواجب حتى يثبت وجوده شرطًا كما قلت ذلك في حقّ موجود يوجد بعد العدم.

فاعلمْ أنَّ القبل والبعد وُجدَا بعد وجود الزمان ولم يكن إذ ذاك إلا قبلية ١٥ الذات والشرف. وقولنا إذ ذاك متشابه فإنَّه مشعر بوجود الزمان. وقبليّة الشرف والذات بين الواجب الموجود بذاته وبين الموجودات الحادثة منه ليس لها حدٌّ ومنتهى. فإذا لا قولَ أصدقُ من قولِنا: إنَّ الله كان موجودًا قبل الموجود الأوَّل قبليّة لا تتناهى ولعلَّ الآن يتجلّى لك حقيقة قوله عليه الصلاة والسلام:

«خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي ألف عام.»[١٣٠] وأنَّه لِمَ قدّر تلك القبليّة بمقدار متناهٍ من الزمان وهذا سرٌّ عظيم. فالطريق من كلّ ممكن إلى كلِّ ممكن متناهٍ والطريق من كلّ ممكن إلى الواجب غير متناهٍ. ولو لم يكن كذلك لزم أن يكونَ ما يتناهى أكثر ممَّا لا يتناهى وذلك محال. وهذه القضايا من الأوَّليَّات التي تدركها عين المعرفة وطريق ٥ إدراكها منسدّ على عين العقل فلا تطمعنّ بعلمك وبضاعتك المزجاة منه في إدراكها.

الفصل الثالث والسبعون

[كلُّ موجودٍ غير مساوقٍ لوجود الواجب]

فإذا تحقّق من هذا أنّه ليس في الوجود موجود يساوق وجوده وجود الواجب ولا يتصوّر أن يوجدَ أيضًا. فلا الموجود الأوّل يساوق وجوده وجود الواجب ولا ١٠ غيره. نعم الواجب مساوق الوجود لوجود كلِّ شيءٍ ومساوقته لما لم يوجد بعد عند وجوده كمساوقته للموجود الأوّل من غير فرق. هذا هو الجواب الحقّ.

واعلمْ أنَّ العارف إذا نظر بعين المعرفة أدرك لقولنا كلُّ موجود فهو مساوق الوجود لوجود الواجب معنى صحيحًا. ولكن العقل والعلم يمسّهما[١٣١] الكلال دون إدراك ذلك. وعند ذلك يقول العارف: «إنّ الله مع كلِّ شيء وهو مع ذلك قبل ١٥ كلِّ شيء قبليَّة لا تتناهى.» ويقول: «ليس في الوجود شيء هو مع الله ولا بعده ولا يُتصوّر أيضًا أن يكونَ بهذه الصفة شيء في الوجود. وإيّاك أن تُنكر قولنا ليس مع الله شيء ولا بعده فتكون أعمى لا تدرك الألوان ولا تؤمن أيضًا بوجودها.

فإنَّ ذلك حقّ وصدق وهو أجلى وأظهر لعين لمعرفة من الأوّليّات لعين العقل. فاعلمْ أنَّ العقل قد يدرك لقولنا إنَّ الله مع كلِّ شيء وقبل كلِّ شيء ٢٠ معنى صحيحًا ولكن ليس ذلك المعنى في شيء ممّا يُدرك بعين المعرفة.

---

١٣٠ أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول صلّى الله عليه وسلّم. [٤/١٧٥]
١٣١ ش: يمسكهما.

وأمّا قولنا ليس مع الله شيء ولا بعده شيء فذلك مما لا يُتصوّر للعقل أن يُدرك شيئًا من معناه أصلا. والإطناب في شرح هذا [١٣٢] لا يزيدها[١٣٣] إلا إباءً واستعصاءً على الإدراك العقلي، [١٣٤]والاقتصار على القدر اليسير الذي سبقت الاشارة اليه أولى. ولينظر الطالب في الفصل الذي بعد هذا الفصل فإنّه كالبذر لما قبله فربّما يجتني من ثمرته[١٣٥].

٥ الفصل الرابع والسبعون

[أقسام القرب والبعد]

القرب والبعد ثلاثة أقسام: حسّي وعقلي وروحي.

القسم الأول: يوجد في الزمان والمكان كما يقال: «القمر أقرب إلينا من الشمس.» و«عصر رسول الله أقرب إلى زماننا هذا من عصر نوح[١٣٦] عليهما السلام.»

١٠ القسم الثاني: القرب العقلي، وعند وجود هذا القرب تبطل فائدة القرب الزماني والمكاني، فيقال: «الشافعي مثلا أقرب إلى الصدّيق الأكبر من أبي جهل وإن كان هو أقرب زمانًا ومكانًا من الشافعي.» وكلّ شيئيْن يوصف أحدهما بالقرب من الآخر أو البعد عنه من حيث الزمان والمكان فلا يجوز أن يكونَ لهما وصفٌ من القرب والبعد العقليّ أصلا إلا من حيث تشابهٍ في اللفظ وتوسُّع في العبارة إذ لا يجوز أن يُقالَ

١٥ إنّ المعنى الذي كان الشافعي به أقرب إلى أبي بكر من غيره هو قرب من السماء والأرض أو بعيد عنهما إذ [١٣٧]ذلك المعنى ممّا تسعه السماء والأرض.

وعند ذلك ينبغي أن نفهم أن لا نسبة لشيء من الأشياء التي توصف بالقرب الزماني والمكاني إلى الله عزَّ وجلَّ في القرب والبعد. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام حاكيًا عن ربّه: «لا تسعني سمائي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي

٢٠ المؤمن الليّن الوادع.»[١٣٨]

---

١٣٢ ش، ب+ قضايا.

١٣٣ ش: يفيدها.

١٣٤ ب+ الاختصار.

١٣٥ ش، ب+ يوما.

١٣٦ ش: آدم.

١٣٧ ش+ ليس.

١٣٨ أورده العجلوني في كشف الخفاء [٢/٢٥٥]

القسم الثالث: والقسم الثالث هو القرب الذي يدركه العارفون ولا يتصوّر للعقلاء[١٣٩] إدراكه أصلا. ومن الأحكام المستفادة من هذه المعرفة أن يقول العارف: «قربُ الحق تعالى متساوٍ من كلِّ شيء لا تفاوتَ فيه بوجهٍ من الوجوه، فالأجسام والأرواح متساوية في النسبة إليه. وعند ذلك نقول: «كلّ موجود فهو مساوق الوجود لوجود الحقّ[١٤٠] لا ٥ فرقَ في مساوقتها قطعا[١٤١] البتة.» واعلمْ أنَّ الذي وصفناه من القرب والبعد في القسم الأوّل صحيحٌ بالإضافة إلى حاسّة البصر. والذي وصفناه في القسم الثاني صحيحٌ بالإضافة إلى بصيرة العقل. والذي وصفناه في القسم الثالث صحيحٌ بالإضافة إلى بصيرة العارف. والذي في القسم الثاني من علم اليقين. والذي في القسم الثالث من عين اليقين. وأمّا حقّ اليقين فلم أصلْ بعد إليه ولا تعثَّرتُ في طريقي عليه، وأنا ١٠ مؤمن به إيمان الأكمه بوجود الألوان. وكما يستحيل للجامد على المحسوسات أن يدرك معنى القرب والبعد المشار إليهما في القسم الثاني فكذلك يستحيل للجامد على العقليّات أنْ يدرك حقيقة القرب والبعد المشار إليهما في القسم الثالث. فاجتهدْ أن تؤمنَ به إيمانك بالغيب ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ (سورة الطلاق، ٦٥/١)

الفصل الخامس والسبعون

١٥ [حقيقة يوم الآخر]

لعلَّك تقول: أين أنت من قولك إنَّ هذه الفصول تشتمل على العلم بالله[١٤٢] وبرسوله وباليوم الآخر؟ فقد أطنبت القول في العلم بالله وبصفاته وفي الطور الذي وراء العقل وهو الذي يتوقّف عليه الإيمان بالنبوَّة. وأمّا العلم باليوم الآخر فإنَّك لم تتعرّضْ له أصلا ولم تذكر في معناه فصلا. وما بالك لم تحم حول ٢٠ شيء من أحوال النفس وحقيقة أطوارها في عالمي الملك والملكوت؟

١٣٩ ش، ب: العلماء.
١٤٠ ش+ الأول.
١٤١ ب: أصلا.
١٤٢ ش+ بصفاته.

فاعلمْ قبل كلِّ شيءٍ أنَّ اليوم الآخر ليس من جنس أيَّامنا هذه التي تعرف بطلوع الشمس وغروبها لأنَّ الشمس تكون مكوّرة[١٤٣] يوم القيامة،

وإنَّما عُبّر عنه باليوم لضيق العبارة كما عبّر عنه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حيث قال: «ألا إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض.» كما عُبّر عنه في القرآن فقيل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ (سورة الأعراف، ٥٤/٧) وما لم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات فيستحيل للسالك أن يصل إلى يوم الدين. فإذا فهمت ذلك فاعلمْ أنَّ النفسَ الإنسانيّة لها أطوارٌ كثيرة وتكاد تخرج عن الحصر والتناهي. فما دامت النفس في أطوار مخصوصة، قيل: هي في الدنيا. وما دامت النفس في أطوار آخر مخصوصة، قيل: هي في عرصات القبر والقبر أوّل منزلة في منازل الآخرة. وما دامت في أطوار مخصوصة، قيل: هي في عرصات القيامة. وما دامت في أطوار أُخر مخصوصة، قيل: هي في الآخرة.

الفصل السادس والسبعون

[النفس موجودة قبل البدن]

اعلمْ أنَّ العقلَ الإنساني لم يدرك من حقيقة النفس إلا ما لزم وجوده من النظر في البدن وعوارضه وذلك مثل كونها مدركة ومحركة وهاتان صفتان يشترك فيهما جميع الحيوانات.

وأمّا ما أدرك من بقائها بعد انقطاع تصرّفها عن البدن فإنَّما عرف ذلك من طريق النظر في الإدراك العلميّ من حيث أنّ النفس محلّ العلوم وأنَّ العلومَ لا تنقسم فلا يتصوّر انقسام محلّها وأنّ كلّ ما كان كذلك فلا سبيلَ إليه للفناء.

وأمَّا حكمهم بوجودها قبل البدن فلم يقمْ عليه أحدٌ برهانًا واضحًا بحيث لا يتطرّق إليه شبهة وشكّ وكان تقصير العلماء في ذلك يرجع إلى ضيق اللفظ عن أداء حقّ ذلك المعنى.

---

١٤٣ ب: مدورة.

وحكمهم بأنّها وجدت مع البدن وأنّ البدن كان شرطًا في وجودها من علّتها الموجبة للوجود فهو خطأ فاحش. نعم تغيّر حالها عند خلوّ البدن معلوم. والحقّ أن النفس كانت موجودة قبل البدن وهذا عندي واضح ولكنّني لا يمكنني التعبير عنه بحيث لا يبقى فيه إمكان شكّ ومجال اعتراض. وغالب ظنّي أنَّ كلَّ من أدرك ذلك كان بهذه المنزلة في العجز عن التعبير عمّا أدركه.

واعتقادي هذا في النفس [١٤٤] إلا أنّ السلوك العقلي أعانني فيه غاية الإعانة بالمقدّمات المذكورة في كتب النظار والقدر الذي يمكن أن توشح به هذه اللمعة أن سبب وجود النفس كان بكمال السببيّة موجودًا قبل [١٤٥]البدن وكان المسبب معه. نعم تصرّفها في البدن كان موقوفًا على وجود شروط مخصوصة فلم يوجد إلا بعد وجود تلك الشروط.

الفصل السابع والسبعون

[بقاء النفْس الإنسانية]

معلوم أنّ النفْس حادثة وباقية أبدًا بعد الموت وليس ذلك إلا أنّ سببها يبقى أبد الآباد. فإذا حصل لك علم يقيني بوجود سببها قبل البدن حصل بالضرورة علمك بكونها موجودة قبل البدن ووجود سببها قبل البدن ظاهر في العلوم النظرية إلا أن كمال السببية موهوم غير مقطوع به. وهذا هو القدر الذي حصل لي من طريق الذوق ولم يحصل من طريق العلم. فاعلمْ أنَّ النفس إن كان لا يُتصور وجودها من السبب الموجب لوجودها إلا شرط التصرف في البدن لزم أن تنعدم بعد التصرف في البدن.

---

١٤٤ ب+ لم يحصل لي بكماله من النظر في البراهين العقليّة والمقدمات العلميّة.

١٤٥ ش، ب: وجود.

الفصل الثامن والسبعون

[الأرواح موجودة قبل وجود الأجسام]

اعلمْ أنَّ الله سبحانه يتعالى ويتقدس عن أن يسع عظمته حضيض الزمان والمكان وهذا بعينه حكم الأرواح فإنَّها ليس أجساما حتى يتَّسع الزمان والمكان للإحاطة بها. ٥ ولما كان الأمر كذلك حكم سيِّد الأوَّلين والآخرين عليه الصلاة والسلام بأنَّ الله عزَّ وجلَّ قبل العالم الزماني [١٤٦] قبلية أن قدرت بمقدار من الزمان لم يكن متناهيًا وأمّا الأرواح فقدر قبليتها على الأجسام بمقدار الفي ألف عام وقد أدركت هذه القبلية بحمد الله ومنِّه إدراك أجلى [١٤٧] وأوضح من إدراك العقل لأولياته. وأما تقديره [١٤٨] بهذا المقدار المذكور دون سائر المقادير فممّا لمْ تدرك بعد حقيقته والله عزَّ وجلَّ يُرشح ١٠ الباطن لإدراكه بفضله وكرمه ويجعلنا ممن يستحقُّ ذلك من جوده الأزلي.

الفصل التاسع والسبعون

[السبب الموجب لوجود النفس]

لعلَّك الآن تشتهي أنْ تعرف السبب الموجب لوجود النفس. فاعلمْ أنَّ الحقَّ الذي لا ريب فيه أصلا عند أرباب القلوب المختصين ببصائر تدرك المعارف ١٥ التي يقصر العقل عن إدراكها بالضرورة هو أن النفوس محتفلة اختلافا لا يدخل تحت الحصر درجاته وان ذلك الاختلاف ليس اختلافا كاختلاف الأنواع ولا كاختلاف الأجناس بل اختلاف النفوس وراء ذلك كله. فمن النفوس ما لم يكن بينها وبين الحق الأول واسطة وهذه قضية يقصر العلم والعقل عن إدراكها فترى المتحذلق عند سماعها يبادر ويقول: كيف يُتصور ذلك والنفس ٢٠ تتغير بأنواع مشهورة من التغيرات والله تعالى يتنزه عن طَرَآن التغيير عليه؟

---

١٤٦ ش، ب+ المكاني.

١٤٧ ب: أقوى.

١٤٨ ش+ بتلك القبلية.

فكيف يجوز أن يكون هو بذاته من غير واسطة شيء سببا لبعض النفوس؟ وعن هذا المعنى يُكني القرآن حيث يقول: ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾ (سورة ص، ٧٥/٣٨) وإليه الإشارة بقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «خلق آدم على صورة الرحمن.»[١٤٩] وقوله أيضًا «ما خلق الله شيئا أشبه به من آدم عليه السلام»

٥ ولعلَّك إذا أدركت وجود الحق حق الإدراك بحيث يحيط بالأزمنة كلها ماضيها ومستقبلها على التساوي شممت شيئًا من روائح ذلك.

والكلام في أمثال هذه النفوس ليس بجائز ولا أيضًا يتأتى ذلك لأحد. وكيف لا وأقلُّ أحكامها ما ذكرناه وأسماع العقول تمجها وتنبو عن إدراكها، فالأعراض عن ذلك إلى ذكر ما هو مقبول عند العلماء قاطبة أولى.

١٠ فاعلمْ أنَّ النفوس إلا قليلا منها توسطت بين وجودها ووجود الأول وسائط كثيرة وعدد الوسائط في كل نفس لا يحيط به إلا علم الله أو علم من رشّحه لذلك وهذه النفوس كلّها تشترك في كونها مسببة لأسباب غيبة ملكوتيّة.

الفصل الثمانون

[كلُّ نفس مخصوصة ببدن مخصوص]

١٥ إنَّما اختص كلّ بدن بنفس مخصوصة لكون كلِّ نفسٍ مخصوصةً بصفة اقتضت ذلك مع وجود شروط أُخر متعلقة بالحركات السماوية. والعبارة ضيقة عن حقيقة تلك الصفة التي اختصت بها كل نفس وعن تلك الشروط جميعا ولعله يقلّ في الخلق من يتصور إحاطة علمه بذلك ولست أعنى بالعلم الذي يستفاد من طريق التعليم فإنَّ حصول ذلك من ذلك الطريق يكاد يكون كالمحال.

---

١٤٩ رواه البخاري في كتاب الاستئذان.

ولعل انجذاب كلّ نفس إلى بدنها المخصوص بها يشبه انجذاب الحديد إلى المغناطيس وانجذاب الذهب إلى الزئبق وانجذاب كلّ جسم إلى حيز مخصوص وليس في شيء من ذلك عند العارفين شبهة. وإذا كانت العقول عاجزة عن إدراك حقيقة المعنى الذي به ينجذب الحديد إلى المغناطيس مع انه مشاهد محسوس للعقلاء قاطبة فأي عجب لو عجزت عن إدراك تلك المناسبات التي بين الأرواح ٥ والأجسام وهي خارجة عن الحصر والحد والعد واعلمْ يقينًا أنَّ العارف لا يستبعد أصلا انجذاب الحديد إلى المغنطيس كما أن العقلاء لا يستعبدون أصلا انجذاب كلّ جسم إلى حيز مخصوص.

الفصل الحادي والثمانون

[سبب تعدُّد الأنفس] ١٠

كما أنَّ لكلِّ جسم مكانًا مخصوصًا وفيه معنى يحرّكه إلى حيِّزه ولا يقف به دونه فكذلك كلُّ نفس خرجت من معدن مخصوص، واختلاف النفوس من اختلاف معادنها «والناس معادن كمعادن الذهب والفضة» كما أخبر عنه سيِّد الأنبياء وقد خلق الله في كلِّ نفسٍ معنى مخصوصًا يحرِّكها إلى معدنها الأصلي ولا يقف بها دونه. وهذا هو الحقُّ المشاهد الذي لا ريبَ فيه أصلا للعارف. وعن ١٥ مثل هذا المعنى يُترجم القرآن حيث يقول: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ (سورة البقرة، ٦٠/٢) وحركات الجوارح آثار تلك المعاني التي عبأتها القدرة الأزلية في النفوس إتماما لتلك الحكمة وإظهارا لكمال اللطف والخبرة. فالنفوس التي لا يكون بينها وبين الأوَّل واسطة، تنجذب إلى جنابه طبعا كانجذاب الحديد إلى المغناطيس، وهذه النفوس هي العارفة بالله حقا. وقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ ٢٠ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (سورة المائدة، ٥٤/٥) كناية عن أهل هذه المعرفة.

وإنَّما عرفه هؤلاء معرفة حقيقة، لأنه تعرف لهم في تجليه من غير واسطة، فاستغرقوا بكليتهم في معرفته. وقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (سورة الأعراف، ١٧٢/٧) كناية عن تعرفه وتجليه لهم.

وقولهم بلى عبارة عن استغراقهم في مشاهدة ذلك الجمال. ورحم الله شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري فلقد أفصح عن هذا المعنى غاية الإفصاح حيث قال في بعض كلامه: الحق أراد في امتناع نعوته وعلو عزته أن يعرف فتعرّف فعُرف لا بعلم فيعبّر عنه، ولا بسبب فيشار إليه، ولا بنعت فيثبت بها، بل معرفة وقعت قهرا فأوجبت جمعا فلم تدع رسما، فصارت في الرسم جحدا وقامت في الحقيقة حقًّا. إلهي تلطفت لأوليائك فعرفوك ولو تلطفت لأعدائك لما جحدوك.

فهذا حكم النفوس التي لم يكن بينها وبين الأول الحق واسطة، [١٥٠]فإنَّما تعرّف لها من وراء حجاب فهذه المعرفة قاصرة عن معرفة المصطفين في الصفِّ الأوَّل.

الفصل الثاني والثمانون
[استغراق الهويَّة الأزليَّة]

لما بلغت هذا الفصل أشرقت سلطنة الجلالة الأزليَّة، فتلاشى العلم والعقل وبقي الكاتب بلا هو، لا بل غشيته الهويَّة الحقيقيَّة فاستغرقت هويَّته المجازيَّة. فلمَّا ردَّ جمال الأزل عقله وعلمه ونفسه عليه، كان لسانه يتلجلج بقول (الشاعر):

فَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ   فَظُنَّ خيْرًا وَلا تَسْأَلْ عَنِ الْخَبَرِ[١٥١]

---

١٥٠ ش + فعرفته حقَّ المعرفة، لأنَّه تعرَّف لها بلا حجاب. وأمَّا النفوس التي كانت بينها وبين الأوَّل الحقّ واسطة.

١٥١ البيت لابن المعتزّ.

الفصل الثالث والثمانون

[الاشتياق إلى الهويَّة الأزليَّة]

كانت الدموع ملأت المحاجر والقلوب بلغت الحناجر، وبرّحت بالعاشق صبوته وعظمت حسرته وقال: إلى متى الهذيان الفارغ؟ وأنَّى ينفع ذكر المعشوق والعاشق في سجن الفراق؟! فلمَّا اشتدَّت بالمسكين جوعه [١٥٢] واتَّفق إلى وطنه الأصلي رجوعه فبقي القلم وقد أعوزه الكاتب.

الفصل الرابع والثمانون

[في حضرة سلطان الأزل]

ورد عليه من حضرة السلطان أمرٌ جازمٌ بالدخول عليه، فطار طائر إلى عشِّه الأصلي ومعدنه الفطري وترك القفص. وجرى بينه وبين السلطان وهو على يده ما لا يُتصوَّر ذكره. فلمَّا أذن له في الانصراف، استأذن في حكاية حاله للسالكين في حضيض المكان والزمان فأذن له في ذلك. فلمَّا عاد مستقرَّه من السجن راجعَ ما كان بصدده وكتب هذه الفصول المشتملة على حكاية حاله وما جرى عليه.

الفصل الخامس والثمانون

[الأمور الحاصلة في حضرة سلطان الأزل]

إنْ خطر ببالك أنَّه ما الذي جرى؟ نوديتَ من وراء حجب الغيب: تأدَّب! ما للعميان سؤال عن حقيقة الألوان؟! فوالله الذي بيده الملك والملكوت وتحت سلطانه [١٥٣] الجبروت لو ظهرت ممَّا جرى بينهما ذرَّة في عالمكم هذا لتلاشى العرش والكرسي فضلا عن السماوات والأرضين.

---

١٥٢ ب+ حرة روعه.

١٥٣ ش، ب+ العظموت.

الفصل السادس والثمانون

[الإعراض عن الدنيا لتذوُّق المعرفة]

إيَّاك ثمَّ إيَّاك أن تستشرف للطمع في إدراك تلك المعاني من هذه الألفاظ فتتصرَّف فيها بعقلك المزخرف وفطنتك البتراء! واقبل منِّي هذه النصيحةَ مجَّانًا، ولا أراك تقبل، وعذرك عندي واضح في ذلك. فلقد شاهدت من ممارسة العلم عجائب لا أستنكر معها ذلك، لا منك ولا من غيرك من أهل النظر. نعم، إن شئتَ أنْ تصلَ إلى حقيقة ذلك بطريق الذوق، فدع الدنيا النجسة بما فيها من القاذورات للمقبلين عليها والمتوجِّهين بهممهم الدنيَّة إليها. وأمَّا الآخرة فلا تعجّ[١٥٤] فيها غبنا[١٥٥]. فالعاشق يكفيه الوقوف دون الوصول إلى معشوقه عارًا وشينًا. لعمري: ﴿مِنكُم مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٥٢) ولكن أين أنت من أقوام نبذوهما وراءَ ظهورهم، فأثنى عليهم القرآن الكريمُ وقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (سورة الكهف، ١٨/٢٨) فإنَّك إذا فعلت ذلك انجعل الجود الأزلي والكرم الإلهي بقلب لا تعلق بشيء من السماوات والأرض ولا يشفي غليلَ صدرك إلا جمال الأزل وهو ماء الحياة.

الفصل السابع والثمانون

[النفس الزكيَّة تتوجَّه إلى الله بالطبع]

ما أصدق المثل السائر: الكلام يجرّ الكلام! فقد انتهى بنا الكلام في النفوس وأحوالها، إلى عوالم لا نهاية لعجائبها، وبحار لا قيمة لجواهرها فنرجع الآن إلى المطلب المقصود ونستوعب في بيانه غاية المجهود ونقول: كما أنّ الجسم إذا تحرّك بطبعه إلى حيّز مخصوص فلا بدَّ وأنْ تكون حركته إليه من أقرب الطرق، وهو الخطّ المستقيم الذي لا يتصوّر فيه انحراف أصلا.

---

١٥٤ ش: تفتح.

١٥٥ ش: غينا.

وهذا معلوم قطعًا بالبرهان اليقيني ومشهور عند من يتصفَّح أمثال ذلك، فكذلك كلّ نفس من هذه النفوس فإنَّها تتحرّك إلى حيّزها الأصلي وهو المعدن الذي خرجت منه من أقرب الطرق، ولا تلتفتنّ إلى عوائق تعوقها في الطريق عن الحركة وتمنعها عن الانجذاب فإنَّ ذلك غير قادح في غرضنا هذا فإذا اشرف النفوس ما يتحرّك إلى الله طبعًا لا تكلّف فيه على الصراط المستقيم الذي هو أقرب الطرق. فإنْ وقف القدر ببعض النفوس في الطريق على شيء فذلك خارج عن طبيعتها الأصليّة ولا اكتراث بأمثاله.

وهؤلاء ما داموا في الطريق فتجدهم أخفّاء الألسنة بقوله تعالى: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾ (سورة الفاتحة، ٦/١) كما أخبر عنه في حقّ الخليل خاصّة في القرآن حكاية عنه أنّه قال: ﴿وَقَالَ إِنّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبّي سَيَهْدِينِ﴾ (سورة الصافات، ٩٩/٣٧) ولا شكَّ عندك أنَّ المغنطيس إذا كان يجذب الحديد إلى نفسه من أقرب الطرق فقد هداه الصراط المستقيم. ولمّا كانت هذه النفوس أشرف النفوس كلّها قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾. (سورة النساء، ١٢٥/٤)

الفصل الثامن والثمانون
[سبب الاختصار في ذكر أحوال النفوس]

هذه المعاني التي أودعت في هذه الألفاظ بعيدة جدا عن ظواهر مفهوماتها، فإنَّها وضعت للدلالة على معان غير هذه المعاني المقصودة بها، فمن سمعها فلا بدّ وان تسبق إلى فهمه عند سماعها، ومفهوماتها الخاصة بها بالضرورة. وإنَّما يشم مبادئ روائحها قليل من فحول العلماء الناظرين. وعذري في ذلك واضح، فمن أراد أن يُفهم الأكمه كيفية إدراك الألوان أو العنين حقيقة لذة الوقاع، لم يكن له بدّ من أن يقول للإنسان معنى يُدرك به الأشياء كما يُدرك بسائر الحواس.

ومع ذلك فتلك المدركات لا تُناسب المذوقات والمشمومات والمسموعات والمعقولات. وهذا يعسُر على الأكمه التصديق به وان اعترف بلسانه وقال: قد اعتقدت ذلك اعتقادا يقينا علمنا أن اعترافه ذلك إيمان بالغيب، وان اعتقاده لا بدّ وأن يكون مُركبا من خيالات فاسدة قد عششت في دماغه. وكذلك إذا قيل لنا أن في الآخرة أمورا لا تناسب المحسوسات ولا المعقولات، عسُر علينا التصديق بذلك إلا أن تؤمن بالغيب إيمان الأكمه بالألوان إلى أن تصل إليها ذوقا. ولهذا المعنى رأيت الاختصار في ذكر أحوال النفوس وأطوارها أولى، ولعل هذا القدر اليسير الذي ذكرته كان الأولى أيضًا تركه، فإنَّ الأكثرين يستبعدون ذلك فينكرونه ويتضررون بإنكاره.

الفصل التاسع والثمانون

[أمور الآخرة لا تناسب المحسوس ولا المعقول]

كأنَّك بعقلك الضعيف تبادر إلى التكذيب بقولنا: «أمور الآخرة لا تناسب المحسوس ولا المعقول.» وتقول: كفى ببطلان هذا القول شاهدًا حكمُ العقل بطريق يقيني حاصر: أنَّ الموجود ينقسم إلى المعقول والمحسوس، فإنْ كانت أمور الآخرة موجودة فكيف يجوز لقائل بانها لا تناسب المعقول ولا المحسوس؟ وعليك الآن أن تصبر صبرًا جميلا حتى أبيّن لك موضع الخلل في ذلك. ثمَّ عليك بعد ذلك أنْ تُراجع نفسك وتطالبها بالإنصاف حتى لا يستولي عليك في اعتراضها جهل بما تسمع.

فاعلمْ أنَّ الأكمه أيضًا تنحصر الموجودات عنده كلها في المحسوس والمعقول وكذلك تنحصر عنده من وجوه كثيرة كانحصارها في القديم والحادث والسبب والمسبب والناقص والكامل، ومع ذلك قيل له أن الألوان لا تناسب المعقول ولا المحسوس، كانت هذه القضية صادقة إذا أردنا بالمحسوس ما يدركه الحواسّ الأربع.

وألاكمه قد يكذب بها ويقول: إنْ كان الموجود بكليّته منحصرًا في المعقول والمحسوس، فكيف يجوز ألّا تكون الألوان محسوسة ولا معقولة مع أنّها موجودة؟ وليس لتكذيبه هذا مستند إلا أنّه حصر المحسوسات في مدركات الحواسّ الأربع.

فكذلك إذا قلنا: أمور الآخرة لا تناسب المحسوس ولا المعقول، كذّب به الجاحدون وإن لم يكن لتكذيبهم مستند أصلا إلا أنّهم حصروا المحسوسات في مدركات الحواسّ الخمس، وليس ذلك بلازم البتة. وحصر الموجودات كلّها فيما يدرك بالحسّ والعقل أيضًا ليس بلازم. فكم من شيء يعجز العقل عن إدراكه، ويكون كالوهم إذا عجز عن إدراك كثير من العقليّات الصرفة الغامضة وذلك لا يدلُّ على أنَّ كلَّ ما لا يدركه الوهمُ غير صادق.

وكذلك البصر يدرك المحسوسات ويكون حكمه فيها منقسمًا إلى الصادق والكاذب فحكمه بأنَّ هذا الجزء مثلا مقداره كذا، حكم صادق، وحكمه بأنَّ الشمس مقدارها مقدار مجن، وان الكواكب مقدارها مقدار دنانير حكم كاذب. وليس لذلك مستند إلا أنّه لم يدرك البعيد كما يُدرك القريب.

فكذلك فاعلمْ يقينًا أنَّ حكم العقل بأنَّ الله تعالى موجود وواحد وقديم وخالق حكم صادق قطعًا. وحكمه بأنَّ كلِّ موجود فلا بدَّ وأن يدركه كأمور الآخرة حكم كاذب قطعًا.

واعلمْ بعد ذلك أنَّ الله عزَّ سلطانه أبعد عن بصيرة العقل من الشمس عن بصر الحس بدرجات لا تتناهى. فلغاية بُعده وكمال إشراقه يستحيل للعقل إدراكه. فبصيرة العقل بالإضافة إلى إدراكه كالخفافيش بالإضافة إلى إدراك نور الشمس، وبصيرة العارف بالإضافة إلى إدراكه كالإنسان بالإضافة إلى إدراك قرص الشمس. وحيث الشمس فلا يُتصور وجود الخفاش، ولا وجود الإنسان من حيث الحقيقة.

الفصل التسعون

[الإيمان بأسرار الآخرة]

الحق الذي لا شك فيه أن علم الساعة مردود إلى الله سبحانه كما قال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (سورة فصلت، ٤٧/٤١) وليس لك أن تؤمن بشيء من أسرارها أصلا إلا إيمان الأكمه بالألوان. فتأمل أولا أنه كيف ينبغي للاكمه إذا آمن بالألوان من طريق الغيب أن يقطع نظره عن الحواس الأربع ومدركاتها حتى يُتصور له أن يؤمن بالغيب من غير تشبيه وتمثيل، وطالب بعد ذلك نفسك بمثل هذا الإيمان حتى تكون مؤمنا بالغيب وموقنا بالآخرة كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢-٤) وان لم تجد نفسك متحلية بمثل هذا الإيمان فتحقق أن الشيطان قد حوطك ودلّاك بحبل غروره.

الفصل الحادي والتسعون

[ماذا ينبغي لأنْ يصير التصديق بالغيب طبعًا؟]

ينبغي لك أن تتأمّل تأمُّلا شافيًا، إن كنت من أهل الطلب، فيما وظفته عليك من شرائط الإيمان بالغيب، وتكرّر فيه نظرك مرَّة بعد أخرى حتى يصير التصديق بالغيب لك طبعًا بحيث لا تحتاج معه إلى النظر في المقدمات وحينئذٍ يصير باطنُك شديدَ الاستعداد لأنْ يفيض عليه من الله عزَّ وجلَّ نور يُثمر انشراح الصدر وسعة الحوصلة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِن رَّبِّهِ﴾ (سورة الزمر، ٢٢/٣٩) ومهما انشرح صدرك للإيمان بالغيب وفاض على باطنك نور لم تكن تشاهد مثله قبل ذلك،

فاعلمْ أنَّ ذلك أثر من آثار الطور الذي يظهر بعد طور العقل. واستوعب جهدك في الطلب، فإنَّه يكفيك في الوجدان؛ فمن طلب وجدَّ وجد.

وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى داود عليه السلام: «يا داود، من طلبني وجدني؛ ومن طلب غيري لم يجدني.»[١٥٦] وهذا يلزم منه بطريق البرهان أنَّ من طلبه لا يُتصوَّر منه طلبُ غيره. وإلى مثل ذلك يشير قوله عليه الصلاة والسلام: «من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له.»[١٥٧]

الفصل الثاني والتسعون

[مدركات طور ما وراء العقل]

مدركات هذا الطور تنقسم بوجه من الوجوه إلى ما نسبته إليه نسبة الأوَّليَّات إلى العقل، وإلى ما نسبته إليه نسبة الغوامض النظريَّة التي لا تُدرك إلا بتوسُّطِها إليه، أعني إلى العقل. وهذه القضيَّة عسيرٌ إدراكُها، صعبٌ منالُها فلا تطمعْ في الوصول إليها. واجتهدْ أن تُصدِّقَ بها تصديقَك بالغيب، لعلَّ اللهُ يرزقك الوصولَ إليها فتستغني بالذوق عن السماع.

الفصل الثالث والتسعون

[مدركات هذا الطور أسرار على العلم والعقل]

مدركاتُ هذا الطور أسرارٌ على العلم التميزي وعلى العقل الإنساني، كما أنّ مدركاتِ البصر أسرارٌ على حاسَّة الشمِّ، ومدركاتِ الوهم أسرارٌ[١٥٨] على قوَّة السمع والذوق. والأوَّليّاتُ أسرارٌ على الحواسِّ كلِّها. والتحقيقُ في ذلك

١٥٦ رواه المقدسي في الترغيب [١/٥٣]
١٥٧ أورده القرطبي في الاستذكار [٢/٥٢٦]
١٥٨ ش، ب+ على قوّة الخيال والحفظ، ومدركاتِ اللمس أسرارٌ.

أنَّ السرَّ والعلانيةَ اسمان إضافيّان، فرُبَّ شيءٍ هو سرٌّ على مُدرِكٍ وهو علانيةٌ بالإضافة إلى مُدرِك آخر. والأوَّليَّاتُ علانيةٌ عند العقل، وأسرارٌ عند الحواسّ. وأكثر ما يُطلق عليه اسمُ السرِّ في لسان الشرع وعلى السنَّة الصوفيَّة فهو سرٌّ عند العقل الإنساني وسرٌّ على الحروف والأصوات. وكلُّ ما لا يُتصوَّر عنه العبارة فهو سرٌّ على العبارة، ولهذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام: «إذا ذُكر القدرُ فأمسكوا.»[١٥٩] يعني أنَّ القدرَ سرٌّ على الكلام البشري والنطق الإنسانيّ، فلا يُتصوَّر عنه عبارة أصلا. ولذلك قال سهل التستري رحمة الله عليه: «الكلامُ في القدر عند المخالف بدعة.»

وتحقِّقْ هذ الفصلَ فإنَّك تحتاج إليه فيما بعد.

الفصل الرابع والتسعون

[أمور القيامة كلُّها أسرار على العلم الإنساني]

أمورُ القيامة كلُّها أسرارٌ على العلمِ الإنساني، فلا يُتصوَّر أن يحيطَ بها أحدٌ[١٦٠] ما دام في الدنيا ولم يتخلَّصْ عن أسْرِ الوهم وتغليطِ الخيال. وقولُ الكفَّار: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة يونس ١٠/٤٨، ٢٥/٦٧) سؤالٌ عن كلِّ شيءٍ يستحيلُ الجوابُ عنه على موجبه، إنَّ أمرَ الساعة إذا كان كلمحِ البصر أو هو أقرب، وكان'' متى'' سؤالا عن الزمان، استحال جواب السائل عنه. وهو كقولِ الأكمه إذا وصفنا له المبصراتِ المتلوِّنةَ: فقال كيف تُذاقُ هذه المبصراتُ؟ أو كيف تُشمُّ هذه المبصراتُ؟ فالجواب الحقُّ في ذلك أنْ نقولَ: «العلم بالمبصرات عند البصير. فإنْ تخيَّلَ الأكمهُ شيئًا في معنى ما وصفناه وحكيناه له على سبيل المقايسة أخطأَ فيه بالضرورة. فإذًا، الجوابُ الحقُّ مع الكفَّار إذا قالوا: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ (سورة الملك، ٦٧/٢٥) يُقالُ لهم: العلمُ في ذلك عند الله. فمن رجع إلى الله وحُشر إليه، كان عنده؛ فلا بدَّ وأن يعرفَ حينئذٍ حقيقةَ الساعة بالضرورة.

---

١٥٩ رواه الطبراني في الكبير [٢/٩٦]

١٦٠ ش: أصلا.

لأنَّـه عنـده ﴿وَعِنـدَهُ عِلْـمُ السَّـاعَةِ﴾ (سـورة الزخـرف، ٨٥/٤٣) فـإذًا، بالضـرورة «لا تقـوم السـاعة وعلـى وجـه الأرض مـن يقـول لا إلـه إلا الله.»[١٦١] كمـا أخبـر عنـه سـيّدُ الأوَّليـن والآخِريـن. فـإنَّ مـن كان بَعْـدُ علـى وجـه الأرض لـم يُحشـر بعـدُ إلـى الله سبحانه وتعالى. فإذًا، من كان ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (سورة القمر، ٥٥/٥٤) فقـد قامـتْ لـه القيامـةُ. وكذلـك المجرمـون وإن كانـوا ﴿نَاكِسُو رُؤُوسِـهِمْ﴾ (سورة السجدة، ١٢/٣٢) فإنَّ القيامةَ في حقِّهم قائمةٌ لأنَّهم عند ربِّهم. ولعلَّ من يقـول: «أبيت عنـد ربي ﴿يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾(سـورة الشـعراء ٧٩/٢٦).» يصـدق منـه أن يقـول: «بعثـتُ أنـا والسـاعةُ كهاتيْـن إن كادتْ لتسـبقني فسـبقتُها أنـا.»[١٦٢]

واعلـمْ أنَّ القيامـة مـن داخـل حجـب السـماوات والأرض، ومنزلتهـا مـن تلـك الحجـب منزلـة الجنيـن مـن رحـم أمِّـه، ولذلـك لا تقـوم إلا ﴿إِذَا زُلْزِلَـتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَـا﴾ (سـورة الزلزلـة، ١/٩٩) وانشـقَّت السـماءُ وانـدثـرت الكواكـبُ وكُـوِّرت الشـمسُ وسُـيِّرت الجبـالُ وعُطِّلـت العِشـارُ ﴿أَفَـلَا يَعْلَـمُ إِذَا بُعْثِـرَ مَـا فِـي الْقُبُـورِ وَحُصِّـلَ مَـا فِـي الصُّـدُورِ﴾ (سـورة العاديـات، ١٠٠/٩-١٠) فمـا دام السـالك خـارجَ حجب الأرض والسماوات فلا تقوم له القيامة، فإنَّما كانت القيامة داخلَ الحجب ، لأنَّ الله داخـلَ الحجـب وعنـده علـمُ السـاعة.

فقولُه عليه الصلاة والسلام: «لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول لا اله إلا الله.» معناه: إنَّ الرجل ما دام خارجَ الحجب فالقيامة سرٌّ على علمه فإذا قطع في سلوكه تلك الحجب وتبحبح في حضرة العندية صار سر القيامة عنده علانية.

---

١٦١ رواه مسلم بلفظه: «لا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله.» [١/١٣١]

١٦٢ رواه البخاري في صحيحه. [٤/١٨٨١]

ولهذا السر[163] لم يجز أن يرى الله أحد أصلا في الدنيا لا نبي ولا ولي. وأما رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فإنَّما رآه بعد أن قطع الحجب ليلة المعراج. ولما قيل لموسى عليه السلام: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ (سورة الحج، ٧/٢٢) لا جرمَ لما طلب الرؤية قيل له: ﴿لَن تَرَانِي﴾ (سورة الأعراف، ١٤٣/٧) واعلمْ أنَّ محمَّدًا
٥ صلَّى الله عليه وسلَّم إنَّما كانت القيامة عنده علانية حين قطع حجب السماوات والأرض ونفذ من أقطارها، فلمّا رجع إلى مُستقره من خارج الحجب كان ذلك العلم عنده سرا كما كان قبل ذلك وإنَّما كان علانية له من وراء الحجب.

وعلى الجملة فالسرُّ سرٌّ أبدًا حيث هو سرٌّ، والعلانيةُ علانيةٌ أبدًا حيث هي علانيةٌ، لا يتغيَّران إلا بتغيُّر أحوال السالكين. وإلى مثل ذلك أُشير بقوله تعالى:
١٠ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾ (سورة النازعات، ٧٩/٤٢-٤٣) أي إن كان سرُّ القيامة علانيةً لك ليلة المعراج فما الذي بقي على ذكرك وفي علمك؟ ومن تصرَّف ببضاعة العقل في هذه الألفاظ، فقد ظلم نفسه. وإيَّاك يا مسكين أن تدع خاطرك يحوم حول التكذيب بذلك أو التشكك فيه فتكفر بما أنزل الله على أنبيائه. فلولا أنت وأمثالك من العميان لما خوطب رسول الله صلَّى الله
١٥ عليه وسلَّم بقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٦٦)

الفصل الخامس والتسعون

[هل كلُّ عاقل يستطيع أن يصل إلى طور ما وراء العقل في هذه الدنيا؟]

فإنْ قلت فهل تقول: إنَّ كلَّ عاقل لا بدَّ وأن يصل إلى الطور الذي وراء العقل كما أنّ كلّ طفل رضيع فلا بدَّ أن يصل إلى طور التمييز إذا حان وقته؟ فاعلمْ أنَّ الأطوار
٢٠ كثيرة ولا بدَّ وأن يصل كلُّ واحد إلى طور ما وراء العقل، وإن كان بعد الموت.

---

[163] ب: السبب.

فأمَّا أن يصل الكلُّ إلى أطوار ممكن في حقِّ البعض فلا يجوز لا بل الواجب الحقّ أن يصل واحد من الخلق إلى أطوار كثيرة وراء العقل وهو بعد في دنياه غير متجرّد عن جلباب قالبه ولا يُتصوَّر لغيره الوصول إلى أكثرها لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وهذا حقٌّ وصدقٌ يشاهده العارفون ببصائرهم كما يشاهد العقل أن العشرة ٥ أكثر من الواحد. والغالب على من لم يُقدّر له الوصول إلى الطور المشار إليه أن يُصرّ على التكذيب بوجوده وبموت عليه إلى أن ينكشف عنه الغطاء كما أشار إليه القرآن في حقِّ الكفار حيث قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (سورة الذاريات، ٦٠/٥١) وقوله: ﴿مِن مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ (سورة مريم، ٣٨/٣٧) ومن كان حاله التصديق بأمثال ما ١٠ حكيناه طبعًا من غير تكلُّف، فلا بدّ وأن يكون قد رُزق شيئا من ذلك.

الفصل السادس والتسعون

[العقل الإنساني للطور الذي ورائه بمنزلة البدن للنفس]

لا شكَّ أنَّ العاقل يستدلُّ بمشاهدة كلِّ بدن على نفسه كما يستدلُّ بمشاهدة بدن الفرس والحمار والقرد والبعير والإنسان، على تفاوت الأنفس المتصرِّفة ١٥ في تلك الأبدان. ويسهل عليه إدراك الفرق بين الأبدان التي هي بعد في تصرف نفوسها، وبين الأبدان التي فارقتها نفوسها بالموت. فكذلك فاعلمْ يقينًا أنَّ العقل الإنساني للطور الذي ورائه، بمنزلة البدن للنفس والعارفون الكاملون في المعرفة، يستدلُّون بمشاهدة قوالب العقول على تفاوت أرواح الأطوار الكامنة فيها كمون النار في الحجر ويسهل عليهم إدراك الفرق بين عقل عُبّئ فيه أطوار كثيرة وبين ٢٠ عقل لا شيء فيه من تلك الأطوار بل هو كقالب انقطع عنه تصرف النفس.

الفصل السابع والتسعون

[ليس كلُّ شيء يقاس بميزان العقل]

إذا اخذ في وداعك الطمع البارد الذي يستولي على النظار من العلماء في الوقوف على حقائق جميع الأشياء وتجلى لك حقيقة قوله عليه الصلاة والسلام: «عليكم بدين العجائز.»[١٦٤] فاعلمْ أنَّ صُبح هذا الطور قد تنفس، كما أن ابن المهد إذا صار بحيث يدرك الأوليات العقلية، فقد طلع له الصبح عقله. واعلمْ أنَّ مثل العلماء في طمعهم ذلك مثل رجل شهد الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع في أن يزن به جبلا مثلا وذلك محال وهذا لا يدلُّ على أنَّ الميزان ليس بصادقٍ في أحواله وأحكامه.

واعلمْ أنَّ العقل ميزان صحيح وأحكامه يقينية صادقة لا كذب فيها وهو عادل لا يُتصوَّر عنه جورٌ أبدًا ومع ذلك فإذا طمع العاقل أنْ يزن به كلَّ شيء حتى أمور الآخرة وحقيقة النبوَّة وحقائق الصفات الأزلية كان ذلك طمعًا منه في محال. واعلمْ أنَّ هذا الطمع ينمحق قليلا قليلا عند إشراق نور الطور الذي وراء العقل كما أنَّ نور الكواكب ينمحق قليلا قليلا عند طلوع الصبح.

وفرق بين أن يودعك الطمع اضطرارًا وبين أن تودعه أنت اختيارًا وهذا مزلّة القدم فخذ منها حذرك. فوداع هذا الطمع ليس إلى اختيارك حتى تودعه متى شئت بل هو موقوف على طلوع الصبح المشار إليه وأنت مضطر فيه شئت أو أبيت. فانمحاق هذا الطمع بالكلية موقوف على إشراق نور الطور[١٦٥] الذي وراء العقل.

الفصل الثامن والتسعون

[بيان وقت سلوك الطريق]

إذا صرت بحيث يقلّ انسك بإدراك الغوامض العقلية من طرق البراهين الصادقة القطعية حتى يكون انسك بذلك مثلا انس النظار المتبحرين في حقائق العلوم بإدراك المسائل المظنونة، فلعل وقتك هذا وقت الأسفار. فلازم سلوك الطريق.

١٦٤ أورده العجلوني في كشف الخفاء. [٢/٩٢]
١٦٥ ش: إشراق نور الشمس.

لعل الشمس تطلع لك فتشاهد جمال الفطرة المذكورة في قوله تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (سورة الروم، ٣٠/٣٠) وحينئذ تنفك رقبتك من أسر الزمان والمكان ويصير تحت قدمك كلّ ما كان عليه وضَرُ الحدثان. وعند ذلك تبذل لك خِلعة الأجتباء ويكون ذهابك إلى الله تعالى طبعًا لا تكلّف ٥ فيه كما قال عليه الصلاة والسلام: «أنا وأتقياءُ أمَّتي براء من التكلُّف.»[١٦٦]

الفصل التاسع والتسعون
[وصول إلى عالم الأزل]

إذا أوتيت رشدَك وبرزت لك الأمانة من خدرها وهي الخزانة النبوية فنفذت من أقطار السماوات والأرض، واستدار لك الزمان كهيئة يوم لا يوم بعده؛ فحينئذ ١٠ تطلع شمسك، ويحسد غدَك أمسُك، وتوجه وجهك لفاطر السماوات والأرض وتُقبل في مناهل الحي القيوم على شرب ماء الحياة وتخرق الآن من قبلك خرقا إلى ربك وهو طريق طيرانك إلى الأزل فلا تزال شموس الأزلية تشرق عليك متى شئت. وأقلّ علامات الإشراق أن تتلاشى فيه إذ يستحيل للعاشق أن يصل إلى معشوقه إلا بعد فنائه؛ فلا تظنَّنَّ أنَّ الوصول يحتمل زحمة الوجود، وهذا لا ١٥ يُتصوّر بيانه فإنَّه يجاوز حدود العلم والعقل.

[١٦٧]فهذه تسعة وتسعون فصلا وقد أكملتها بهذا الفصل المائة. ونعمت عدة للطالب إذا سلك طريق العلم وحصل منه مقصوده فلم تقف به همته العلية بل طالبته ما لطلب لما وراء ذلك نفسه الزكية. فهذا هو القدر الذي أمكنني العبارة عنه مما انكشف لي بعد الفراغ من تحصيل العلم.

٢٠ هَذَا جَنَايَ وَخِيَارُهُ فِيهِ   إِذْ كُلُّ جَانٍ يَدُهُ إِلى فِيهِ[١٦٨]

---

١٦٦ أورده العجلوني في كشف الخفاء. [١/٢٣٢]

١٦٧ هذه الفقرة منشورة بالفصل المائة في نسخة ش.

١٦٨ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، رواه أبو نعيم في حلية الأولياء.

الفصل المائة

[خاتمة الفصول]

اعلمْ أنَّ هذا الكتاب قليل الجدوى إلا لمن طال نظره في الحقائق وكثر تعبه في طلبها حتى تبحر فيها. ثمَّ لا يكفيه ذلك أن لم يجد نفسه متشوقة إلى شيء آخر وراء العقل والعلم فمن لم يكن في باطنه هذا التشوق فليعاود مطالعة هذا الكتاب مرة بعد أخرى فالغالب انه يظهر ذلك فيه. فإنْ شغلته صفة مذمومة عن التكرار في مطالعته لم يظفر به. والصفات المانعة عن ذلك كثيرة والوقت لا يتسع لشرحها فقد غشيني الملال. وهذا هو عذري في كلّ فصل لم أوفّه حقه في استيفاء المقدمات التي يتعلق النظر في ذلك الفصل بها فقد صدني عن ذلك انجذاب القلب إلى ما هو أهمّ منه بكثير. نعم قد أمليت ذلك لجماعة لم أرَ بهم حاجة إلى ما وراء ذلك من المقدمات فأوجزت القول لهذيْن المعنييْن.

ومن طمع أن يحيط حق الإحاطة بحقائق المعاني المذكورة في هذه الفصول بمجرد مطالعته مرة أو مرتين أو أكثر فقد طمع في محال إنَّما حَقُّ من يتصفحها أن يُكبّ طول الليل والنهار على ترديد النظر وتكرير التأمّل فيها، حتى تعلق كل كلمة على خيالها بحفظه. ثمَّ يصير ما يتفهمه منها بذرا لفهمه الحقيقي. ولا يتأتى ذلك إلا بكثرة الممارسة والصبر عليها على تعاقب الليل والنهار. ومهما لم تكن أرض القلب سبخة فلا بدَّ وأنْ تقع فيها هذه المعاني وقوع البذر في الأرض الطيّبة النقيَّة، ويثمر له ذلك عن قريب إن أحسن القيام على تعهده، يسقي الماء في وقته وحفظه عن الآفات العارضة لأمثاله وغير ذلك.

فمن وجد في نفسه نفرة عن الصبر على ذلك أو لم يكنْ بالصفة المذكورة في العلم النظري فليهجر مطالعة هذا الكتاب. فلكلِّ عملٍ رجالٌ. وكلٌّ ميسَّر لما خُلق له. وما أنصف القائل حيث قال:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَمْراً فَدَعْهُ   وَجَاوِزْهُ إِلَىٰ مَا تَسْتَطِيعُ[١٦٩]

فقوّة كلِّ طائرٍ على قدر حوصلته. ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ (سورة البقرة ٢ /٦٠) وهل رأيت الكناس قطّ يزاحم الملوك في سلطانهم؟ هيهات هيهات!

فَكُلُّ طَرِيقٍ أَتَاهُ الفَتَىٰ   عَلَىَ قَدْرِ الرجل فِيهِ الخُطَى[١٧٠]

٥ والحمد لله الذي تتمُّ الصالحات بنعمه وتدلُّ[١٧١] ذرَّات الوجود على علمه وقدرته وحكمته. والصلاة والسلام على رسوله الذي طلعتْ شمسه على الآفاق فأشرقتْ بنورها غايةَ الإشراق محمَّدٍ خير الخلائق المستمرِّ على أحمد الطرائق وعلى آله مصابيح الهدى وينابيع الجود والندى [١٧٢]الذين هم كالنجوم الزاهرات وأزواجه الطيّبات الطاهرات.

١٠ وهو حسبي ونعم المعين ونعم المولى ونعم النصير.

---

١٦٩ لعمرو بن معدي كرب.
١٧٠ للمتنبي.
١٧١ في الأصل: تتمّ.
١٧٢ ش+ وعلى أصحابه.

شكوى الغريب
عن الأوطان إلى علماء البلدان

عين القضاة الهمداني
رحمة الله عليه

بسم اللّه الرحـمن الرحـيم

أَحَقًّا عِبَادَ اللهِ أَنْ لَسْتُ صَادِرًا   وَلا وَارِدًا إِلّا عَلَيَّ رَقِيبُ[1]

هـذه لمعـةٌ أصدرَهـا إلـى المرموقيـن مـن العلمـاء والمشـهورين فيمـا بيـن الفضـلاء، أدام الله ظلالهـم ممـدودة علـى أهـل الآفـاق، ولا زالـت أقطارهـا مشـرقة بأنوارهـم غايـة الإشـراق، غريـبٌ عـن وطنـه ومبتلـى بصـروف الزمـان ومحنـه، عـن جفـن يلازمـه الأرق ووسـاد لا يفارقـه القلـق وبـكاء طويـل وزفـرة وعويـل وهـمٌّ آخـذ بمجامـع قلبـه وزاده كربًـا إلـى كربـه وفـؤاد يُشـرق بالكمـد أرجـاؤه ويضيـق عـن تباريحـه سـويداؤه، وقلـبٌ أحرقـه الفـراقُ بنيرانـه صبابـةً إلـى أحبّتـه وإخوانـه، ولوعـة تتلظّـى فـي الجوانـح نارهـا وتظهـر علـى ممرِ الأيَّام آثارهـا ومنادمتـه للكواكـب ومناجاتـه لهـا بالدمـوع السـواكب..

أَسِجْنًا وقَيْدًا واشْتِيَاقًا وغُرْبَةً   ونَأْيَ حَبِيبٍ؟ إنَّ ذَا لَعَظِيمُ[2]

ومـع هـذا فـلا صديـق يبثـه بعـض أشـجانه ويسـتروح إليـه عمـا يقاسـيه مـن إخوانـه ولا أخ يشـكو إليـه صـروف الدهـر ويسـتعين بـه علـى مـا يعالجـه مـن شـدة الأمـر فهـو يسـهر الليـل الطويـل ويُقضـي نهـاره بمـا قيـل:

أُكَرِّرُ طَرْفِي لَا أَرَى مَنْ أُحِبُّهُ   وفِي الدَّارِ مِمّنْ لَا أُحِبُّ كَثِيرُ

وإذا اشتدَّ به ضيق الصدر تعلَّل بإنشاد هذا الشعر:

وأَنْزَلَنِي طُولُ النَّوَى دَارَ غُرْبَةٍ   ذا شِئْتُ لاقَيْتُ اِمْرِءًا لا أُشَاكِلِهُ

أُحَامِقُهُ حَتّى يُقَالَ سَجِيّة   وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لَكُنْتُ أُعَاقِلُهُ[3]

---

١ للشاعر الأموي، ابن دمينة.

٢ لدوير بن دؤالة العقيلي.

٣ للإمام الشافعي.

وإذا تذكَّر عرار و أروند وحوذانها وهمدان وبها أرضعته ربّات الحجال لبانها تحدَّرت دموعه تصدّعت أكباده وضلوعه وتلوّى وجدًا عليها وأنشد شوقًا إليها:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَرَى العَيْنُ مَرَّةً ذُرَى قُلَّتَي أَرْوَنْدَ مَنْ هَمَذَانَ

بِلادٌ بِهَا نِيطَتْ عَليَّ تَمَائِمِي وأُرْضِعْتُ مِنْ عَفَّاتِها بِلِبانِ

٥ وإذا تذكَّر إخوانه أحفى بقول ابن الطثرية لسانه:

لَيْتَ الرِّيَاحُ يَجِئْنَنَا بِكَلامِهِمْ وَيَجِئْنَهُمْ مِنَّا بِرَجْعِ كَلَامِ

بِرَسَائِلَ يُمْرِضْنَنَا وَوَسَائِلَ يُشْفِينَنَا مِنْ غُلَّةٍ وَهُيَامِ

ثمَّ شدا بقول حبيب وهو يحنُّ حنين مشتاق كئيب:

مَا أَقبَلَتْ أُوَجّهُ اللَذَّاتِ سافِرَةً مُذْ أَدْبَرَتْ بِاللِوَى أَيَّامِنَا الأُوَلُ

١٠ ولا غرو أن يُغلبَ الصبر ويضيق عن كتمان سرّه الصدر فالمكروب إذا ترفّعت زفراته نمّت على أسراره عبراته وليس للإنسان بما لا يُطيقه يدان. وما أنصف من قال وبيّن هذا الحال:

كَتَمْتُ الهَوَى يَوْمَ النَوَى فَتَرَفَّعَتْ بِهِ زَفَرَاتُ مَا بِهِنَّ خَفَاءُ

يَكَدْنَ يَقْطَعْنَّ الحَيَازِمَ كُلَّمَا تَمَطَّتْ بِهِنَّ الزَفْرَةُ الصُعَدَاءُ[٤]

١٥ والمرحوم من ازدحمت الهموم عليه فلم يجد من يتسلّى به كما أشار بشَّار إليه:

---

٤ للشاعر الأموي، أبي وجزة السعدي.

وأبَثَثتُ عَمْرًا بَعَضَ مَا فِي جَوَانِحي وجَرَّعْتُهُ مِنْ مُرِّ مَا أَتَجَرَّعُ

ولا بُدَّ مِنْ شَكْوَى إِلى ذِي حَفِيظَةٍ إِذَا جَعَلتُ أَسْرَارَ نَفْسِيَ تَطلَّعُ

وهل يستوعر الطريق من وجد الرفيق أو يتبرّم بتنائي داره من ظفر بمن يشاكله في جواره؟ ألا ترى إلى قول ذي القروح وهو في نزع الروح:

٥ أَجَارَتَنَا إِنَّ الْمَزَارَ قَرِيبُ وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ

أَجَارَتَنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ

فإِنْ تَصِلِينَا فَالموَدَّةُ بَيْنَنَا وإِنْ تَهْجُرِينَا فَالغَرِيبُ غَرِيبُ

وقد ذكرت بشعر ابن حجر قولَ طهمان بن عمرو:

أَلَا حَبَّذَا وَاللهِ لَوْ تَعْلَمَانِهِ ظِلَاَلكُمَا يَا أَيُّهَا العَلَمَانِ

١٠ ومَاؤُكُمَا العَذْبُ الذِي لَوْ شَرِبْتُهُ وبِي صَالِبُ الحُمَّى إِذًا لَشَفَانِي

فإِنِّي وَالعَبْسِيُّ فِي أَرْضِ مَذْحِجٍ غَرِيْبَانِ شَتَّى الدَّارِ مُصْطَحِبَانِ

غَرِيْبَانِ مَجْفُوَّانِ أَكْبَرُ هَمِّنَا زَمِيلُ مَطَايَانَا بِكُلِّ مَكَانِ

فَمَنْ يَرَ مَمَسَانَا وَمَلْقَى رِحَالِنَا مِنَ النَّاسِ يَعْلَمُ أَنَّنَا سَبُعَانِ

ومَا كَانَ غَضُّ الطَّرفِ مِنَّا سَجِيَّةً ولَكِنَّنَا فِي مَذْحِجٍ غُربَانِ[٥]

١٥ وكأنّي بالركب العراقي يوافون همدان ويحطون رحالهم في محامي ماوشان وقد اخضرت منها التلاع والوهاد، والبسها الربيع حبرة يحسدها عليها البلاد، وهي تفوح كالمسك أزهارها ويجري بالماء الزلال أنهارها.

---

٥ ديوان طهمان بن عمرو الكلابي، تحقيق ودراسة: محمد جبار المعيبد، مطبعة الإرشاد بغداد. ٥٩-٦٢.

فنزلوا منها في رياض مونقة واستظلّوا بظلال أشجار مورّقة، فجعلوا يكرِّرون إنشاد هذا البيت وهم يتنوّحون بنوح الحمام وتغريد الكعيت:

حَيَّاكِ يَا هَمَدَانَ الغَيْثِ مِنْ بَلَدٍ   سَقَاكِ يَا مَاوشَانَ القَطْرُ مِنْ وَادٍ

ثمَّ استقبله الإخوان وسألهم عن أحوالنا الشيب والشبّان وبلغت القلوب الحناجر وأخذت عبراتهم المحاجر وقالوا:

وقَالَتْ نِسَاءُ الحَيّ أَيْنَ ابْنُ أُخْتِنَا   أَلا أَخْبِرُوْنَا عَنْهُ حُيِّيْتُمُ وَفْدَا
رَعَاهُ ضَمَانُ اللهِ هَلْ فِي بِلَادِكُمْ   أَخُو كَرَمٍ يَرْعَى لِذِي حَسَبٍ عَهْدَا
فإِنَّ الذِي خَلَّفْتُمُوهُ بَأَرْضِكُمْ   فَتًى مَلأَ الأَحْشَاءَ هُجْرَانُهُ وَجْدَا
أَبَغْدَادُكُمْ تُنْسِيْهِ أَرْوَنْدَ مَرْبِعًا   أَلا خَابَ مَنْ يَشْرِي بِبَغْدَادَ أَرْوَنْدَ
فَدَتْهُنَّ نَفْسِي لَوْ سَمِعْنَ بِمَا أَرَى   رَمَى كُلُّ جَيِّدٍ مِنْ تَنَهدِهِ عِقْدَا[٦]

وكيف أنسى إخواني ولا أحنُّ إلى أوطاني وقد قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «حبُّ الوطن من الإيمان.»[٧]

أُحِبُّ عِبَادَ اللهِ مَا بَيْنَ مِنْعَجٍ   وحرَّةِ لَيْلَى أَنْ تَصُوْبَ سَحَابُهَا
بِلادٌ تَلَقَّتْنِي بِهُنَّ قَوَابِلِي   وَأَوَّلُ أَرضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُها

ولما قدم أصيل الخزاعي من مكّة على رسول صلَّى الله عليه وسلَّم، قال له: «صف لنا مكة.» فجعل يصفها له حتى قال: «أبرمَ سلمها وأمشر أذخرها»، فقال له عند ذلك: «يا أصيل دع الفؤاد يقر.» وسمع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بلالا يُنشد:

٦ للشاعر الفاطمي الأبيوردي.
٧ أورده العجلوني في كشف الخفاء. [١/٤١٣]

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيلَةً بِوَادٍ وَحَوْلِي اِذْخُرٌ وَجَلِيلُ
وَهَلْ أَرِدْنَ يَوْمًا مِياهِ مُجَنَّةٍ؟ وَهَلْ يَبْدُونَ لِي شَامَةَ وَطَفِيلُ

فقال له: «حننت يا ابن السوداء.» [8] وإذا كان أمثالهم إلى الأوطان يحنّون ويظهر على ألسنتهم ما يضمرون في قلوبهم ويحبّون، فكيف بي على ضعفي إذا منيت بالغربة وشدت الكربة وبلاء السجن ودوام الحزن:

فَلَوْ أَنّي وَقَلبِي مِنْ حَدِيدٍ لَذَابَ عَلى صَلابَتِهِ الحَدِيدُ
وَلَوْ أَنَّ الغُرَابَ اهتَمَّ هَمّي وَفَكَّرَ فِكْرَتِي شَابَ الغُرَابُ

وقد ازدحمت الهموم عليّ ولوت أعناقها إليّ وصارت الأحشاء لها مقيلا فلا يجد السُلوّ إليها سبيلا وصرت أرى العدوّ كأنّي صديقه إذ حمّلتني نكبات الدهر ما لا أطيقه. فلو كان ذلك بالجبال تصدّعتْ، أو بالصمّ الصلاب إذا لتقطّعتْ:

فَلَوْ أَنَّ مَا بِيَ بِالحَصَى فَلقَ الحَصَى وَبِالرِيحِ لَمْ يُسْمَعْ لَهُنَّ هُبُوبُ [9]

أجل، وهذا الفنّ من العلم وإن كان أعلق بالطباع وأخفّ على الأسماع فقد ودّعته وفارقته منذ قاربت البلوغ وراهقته فأقبلت على طلب العلوم الدينيّة واشتغلت بسلوك طريق الصوفيّة. وما أقبح بالصوفي أن يعرض عن شيء ثمّ يعود إليه ويُقبل بقلبه عليه. وغير خاف أن من تبحّر في العلوم واطّلع على سرّها المكتوم لم يعاود أبا جاد في مساعدة قوم أوغاد.

---

٨ رواه أبو القاسم الشافعي في تاريخ دمشق. [١٠/٤٦٤]
٩ لمجنون ليلى، قيس بن الملوح.

ومعلوم عند العاقل أنّ الطبع يأبى على الناقل، فمن غالبه صار مغلوبًا ومتى يكون المرغوب عنه مطلوبًا؟ وقد أعرب البدويّ عن حاله في هذه الأبيات حيث التفت قلبُهُ إلى البداوة أشدّ الالتفات وكان أهل الحضر ونازلة المدر يُشيرون عليه بتعلّم الكتابة وهو يحنّ إلى البدو شوقًا إليه حتى راجع المألوف في بداوته ٥ وقال فيما غلبُهُ من غباوته:

أَتَيْتُ مُهَاجِرِينَ فَعَلَّمُونِي ... ثَلاثَةَ أَسْطُرٍ مُتَوَالِيَاتِ

كِتَابَ اللهِ فِي رقٍّ نَقِيٍّ ... وَآيَاتٍ نَزَلنَ مُفَصَّلاتِ

وَخَطُّوا لِيَ أَبَا جَادٍ وَقَالُوا ... تَعَلَّمْ سَعْفَصاً وَقُرَيْشَاتِ

وَمَا أَنَا وَالكِتَابَةِ وَالتَّهَجِّي ... وَمَا حَظُّ البَنِينَ مِنَ البَنَاتِ

١٠ وها أنا أعود إلى ما هو الغرض المقصود وأطالع أهل العلم لا زالت مشاربهم العِذاب مشارع الورّاد وأكنافهم الرحاب مراتع الروّاد بجليّة أمري وحقيقة حالي وما ابتلاني به التقدير مما لم يخطُر ببالي وأستعيرهم أسماعهم لأقرعها بأشجان قلب دام وأنشدهم ما قاله الطائي أبو تمّام:

أَكَابِرُنَا عَطْفًا عَلَيْنَا فَإِنَّنَا ... بِنَا ظَمأٌ بُرحٍ وأَنْتُمْ مَنَاهِلُ

١٥ فرعى الله من ألقى سمعه إليّ لأذاكره ببعض ما جنت أيدي المقادير عليّ فقد أنكر عليّ طائفة من علماء العصر، أحسن الله توفيقهم وسهّل إلى خير الدارين طريقهم ونزع الغِلّ من صدورهم وهيّأ لهم رشدًا في أمورهم كلمات مبثوثة في رسالة عمِلتها منذ عشرين سنة، وكان مقصودي من إملائها شرح أحوال يدّعيها أهل التصوُّف وظهورها موقوف على ظهور طور وراء طور ٢٠ العقل، والفلاسفة لتلك الأحوال منكرون لأنّهم محبوسون في مضيق العقل.

والنبي عندهم عبارة عن شخص بلغ أقصى درجات العقل. وليس ذلك من الإيمان بالنبوَّة في شيء وإنَّما النبوَّة أنواع كمالات تحصل في طورٍ وراء طورِ الولاية وطور الولاية وراء طور العقل.

ونعني بطور الولاية أنَّ الوليَّ يجوز أن يكاشف بمعانٍ لا يُتصوّر للعاقل الوصول إليها والعثور ببضاعته عليها كما أنّ أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه كوشف في مرض موته بأنَّ امرأته تلد بنتًا حتى قال لعائشة: إنَّما هما أختاك، ولم يكن إذ ذاك من الأخوات إلا أسماء، فعلم أنَّه كوشف بذلك. وكذلك قيل له في مرضَتِه هذه: «ألا ندعو لك طبيبًا؟» فقال: «عندي طبيب الأطباء فقال: ' أنا الفعَّال لما أريد'، فعلم من هذا أنَّه كُوشِفَ بموته. ومن ذلك قول عمر رضوان الله عليه وهو يومئذ يخطب على المنبر: «يا سارية، الجبل!» وسارية أمير جنده بنهاوند[١٠]، فإنَّ إحاطة علمه بأحوال سارية وقومه وهو بالمدينة وهم بنهاوند وبلوغ صوته إلى سارية، ومعرفة أبي بكر بأنَّ امرأته تلد بنتًا وبأنَّه يموت في مرضه معانٍ شريفةٌ وأمورٌ عاليةٌ لا يُتصوَّر الوصول إلى أمثالها ببضاعة العقل بل بنورٍ إلهيٍّ وراء العقل.

ومن هذا القبيل أنَّ بعضَ الصحابة دخل على عثمان بن عفَّان وكان قد نظر في طريقه إلى امرأةٍ فقال عثمان: «ما بال أحدكم يدخل عليَّ وفي عينيه أثر الزنا؟» فقال له: «أَوَحْيٌ بعدَ رسول الله؟» فقال: «لا، ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة. أما سمعت رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: «اتّقوا فراسةَ المؤمن فإنَّه ينظر بنور الله.»»[١١]

وخرج عليّ عليه السلام من منزله صبيحة يومه الذي قتل فيه فجعل ينشد ويكرّر:

أُشْدُدْ حَيَازِيمَك لِلْمَوتِ فَإنَّ المَوْتَ لَاقِيكَ ولَا تَجْزَعْ مِنَ المَوْتِ إذا حَلَّ بِوَادِيكَ[١٢]

---

١٠ رواه البيهقي في الاعتقاد، باب القول في كرامات الأولياء. [١/٣١٤]
١١ رواه الترمذي في سننه. [٥/٢٩٦]
١٢ رواه الطبراني في الكبير. [١/١٠٥]

ولما قدم هرِم بن حيان إلى الكوفة لزيارة أويس القرني وكان قد قصده من مكَّة لم يزل يطلبه حتى ظفر به. فلمّا سلّم عليه قال له أويس: «وعليك السلام يا هرم بن حيان.» فقال له هرم: «من أين عرفت اسمي واسم أبي وما رأيتك قبل اليوم ولا رأيتني؟» فقال: «نبّأني العليمُ الخبيرُ، عرَفتْ روحي روحَك حين كلَّمتْ نفسي نفسَك. إنّ الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد. وإنَّ المؤمنين ليعرف بعضُهم بعضًا.»

والمقصود أنَّ هذه أمور لا تدرك ببضاعة العقل. وقد أنكر علماء العصر عليّ ذلك فيما أنكروه ظنًّا منهم بأنّ من ادّعى طورًا وراءَ طور العقل فقد سدّ على الكافَّة طريقَ الإيمان بالنبوَّة إذ العقل هو الذي دلَّ على صدق الأنبياء. ولست أدَّعي أنَّ الإيمان بالنبوَّة موقوف على ظهور طورٍ وراءَ طورِ العقل بل أدَّعِي أنَّ حقيقة النبوَّة عبارة عن طورٍ وراءَ طورِ الولاية. وإنَّ الولايةَ عبارة عن طورٍ وراءَ طورِ العقل كما سبقتْ إشارتي إليه. وحقيقة الشيء غير وطريق الاعتراف غير. ويجوز أن يحصل للعاقل من طريق العقل تصديقُ طورٍ لم يبلغه في نفسه بعد كما أنَّ من حرم ذوق الشعر فقد يحصل له تصديقٌ بوجود شيءٍ لصاحب ذوق مع أنَّه معترف بأن لا خبرَ عنده من حقيقة ذلك الشيء.

على أنَّ الكمالات التي أنكروها عليَّ كلَّها موجودةٌ لفظًا ومعنى في كتب الإمام حجَّة الإسلام أبي حامد الغزَّالي. وذلك كقولنا في صانع العالم: إنَّه ينبوع الوجود ومصدر الوجود وإنَّه هو الكلُّ وإنَّه الوجود الحقيقي وإنَّ ما سواه من حيث ذاته باطل وهالك وفانٍ ومعدوم وإنَّما كان موجودًا من حيث إنَّ القدرة الأزلية تقوِّم وجودَه. وهذه الألفاظ مذكورة في مواضع كثيرة من إحياء علوم الدين وفي مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار وفي المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال، وكلُّ ذلك من مُصنّفات الغزَّالي رحمه الله.

وقولنا مصدر الوجود وينبوع الوجود كقولنا خالق كلِّ شيءٍ، فمن أوَّله على غير ذلك فهو مخطئ دون القائل. والكلام المجمل إنَّما يرجع في بيانه إلى المجمل لا إلى خصمه المتعنّت والمرء مخبوء تحت لسانه لا تحت ألسنة خصمه. ولست أنكر أنَّ قولنا مصدر الوجود وينبوع الوجود كلمات مجملة محتملة لمعانٍ ٥ بعضُها خطأ وبعضُها صواب؛ والمحقَّق أنَّ الغزَّالي لم يُردْ إلا ذلك:

أَتَاكَ المرْجِفُونَ بِرَجْمِ غَيْبٍ ... عَلى دَهْشٍ فَجْئَتِكَ بِاليَقِينِ

وكيف وفي رسالتي ما لو تأمَّله المنصف علم أنَّ الخصم متعنّت إذ الخصم إن كان يفهم من قولنا مصدر الوجود وينبوع الوجود تعريضًا بقدم العالم فقد ذكرت في تلك الرسالة قريبًا من عشرة أوراق في حدوث العالم وأقمت على ١٠ ذلك البرهان القاطع وإن كان يفهم منه تعريضًا بنفي علمه بالجزئيّات فقد برهنت على ذلك بحيث لا يشكُّ فيه عاقل.

وممَّا أنكروه عليَّ فصولا ذكرت فيها حاجة المريد إلى شيخ يسلك به طريق الحق ويهديه المنهج القويم حتى لا يضل عن سواء السبيل كما صحَّ عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية.»[١٣] وكما ١٥ قال أبو يزيد البسطامي: «من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان.» وقال عمرو بن سنان المنبجي وهو من كبار المشايخ: من لم يتأدب بأستاذ فهو بطَّال. وقد أجمع أرباب الحقيقة من أهل التصوُّف على أنَّ من لا شيخَ له فلا دين له.

هذا هو مرادي في تلك الفصول والخصم حمله على مذهب القائلين بالتعليم وفهم من ذلك القول بالأمام المعصوم. وأنى يستتبّ له هذا التعنت وقد اشتمل الفصل الثاني من ٢٠ تلك الرسالة على إثبات وجود الباري جلَّ وعزَّ من طريق النظر العقلي والبرهان اليقيني.

---

١٣ رواه الطبراني في الكبير. [١٩/٣٨٨]

ومعلوم أنَّ التعليمي ينكر النظر العقلي ويزعم أنَّ طريقَ معرفة الله تعالى هو النبي أو الإمام المعصوم فكيف يستجيز الخصم أمثال ذلك ورسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: «يا معشر من آمن بلسانه ولما يدخل الإيمان قلبه!

لا تغتابوا المسلمين ولا تتَّبعوا عوراتهم فإنَّ من يتَّبع عورةَ أخيه يتَّبع اللهُ عورته ٥ ومن يتَّبع اللهُ عورتَه يفضحْه ولو في جوف بيته.»[١٤] ومن أين يجوز للعلماء أن يقولوا مثل ذلك وينتهجوا في حقِّ مسلمٍ فضلا عن عالم هذه المسالك وقد قال سيِّد الأنبياء محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم: «من حدَّث بما رأت عيناه وسمعت أذُناه كتبه[١٥] الله من ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. (سورة النور، ٢٤/١٩)

١٠ ثمَّ لم يقتصروا على مجرَّد الإنكار حتى نسبوني بهذا السبب إلى كلِّ قبيحةٍ وحملوا أرباب المناصب على أن فضحوني أشدَّ فضيحة:

أَشَاعُوا لَنَا فِي الحَيِّ أَشْنَعَ قِصَّةٍ　　وَكَانُوا لَنَا سِلْمَاً فَصَارُوا لَنَا حَرْبَا

وهذه سنَّة قديمة لله تعالى في عباده إذ لم يزل الفاضل محسودًا بأنواع الأذايا من العوام والعلماء مقصودًا:

١٥ قَدْ قِيلَ أَنَّ الِإلَهَ ذُو وَلَدٍ　　وَقِيلَ أَنَّ النَّبِي قَدْ كَهَنَا[١٦]

لَمْ يَسْلُمِ اللهُ مِنْ مُعَانَدَةِ الخَلقِ　　وَلا رُسْلِهِ فَكَيفَ أَنَا؟

وهب أنَّ أصحاب الأغراض وجدوا في ألفاظها المجملة مجال الاعتراض فماذا يقولون في نصوصها الصريحة التي لا تقبل التأويل وقد حضرني فيما أنا بصدده الشعر الذي قيل:

---

١٤ رواه أبو داوود. [٤/٢٧٠]

١٥ رواه الديلمي في الفردوس.

١٦ أحد البيتين للإمام علي.

هَلْ تَطْمُسُونَ مِنْ السَّمَاءِ نُجُومَهَا   بِأَكُفِّكَمْ أَمْ تَسْتُرُون هِلَالهَا
فَدَعْوا الأُسُودَ خَوَادِراً فِي غِيلِهَا   لَا تُولِغُنَّ دِمَائَكُمْ أَشْبَالَهَا[١٧]

وما لي استبعد ذلك والقرآن ينطق بالحق ويقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ (سورة يوسف، ٧/١٢) وغير خاف أن الحسد دعا إخوة يوسف إلى قتله حيث رأوه أحبّ إلى أبيهم منهم ونسبوا أباهم يعقوب عليه السلام مع ذلك إلى الضلال كما حكي عنهم في القرآن: ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ (سورة يوسف، ٨/١٢) وإذا كان أولاد الأنبياء يجترئون في حق أخيهم وأبيهم بسبب الحسد على مثل ذلك فلا عجب لو أقدم أمثالنا في حق الأجانب على أضعافه.

وقال أبو طالب المكي رحمه الله قد عدّدت على إخوة يوسف من قولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا﴾ (سورة يوسف، ٨/١٢) إلى قوله: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (سورة يوسف، ٢٠/١٢) نيفا وأربعين خطيئة بعضها من الصغائر وبعضها من الكبائر وقد يجتمع في الكلمة الواحدة خطيئتان وثلاث وأربع، استخرجتها بدقيق النظر في خفايا الذنوب.

والحسد من كبائر المهلكات ولا ينجو منه أحد بنص رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حيث يقول:» ثلاثة لا ينجو منهنّ أحد: الظن والطيرة والحسد.«[١٨] وقد ورد في رواية أخرى إمكان النجاة حيث قال: «ثلاثةٌ قلَّ من ينجو منهنَّ.» وقال عليه السلام: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.»[١٩] وقال عليه السلام: «ستَّةٌ يدخلون النار قبل الحساب بست: السلاطين بالجور، والعرب بالعصبية، والدهاقين بالكبر، وأهل السواد بالجهل، والتجار بالخيانة، والعلماء بالحسد.» وقال عليه السلام: « كاد الحسد يغلب القدر.»[٢٠]

---

١٧ لمروان بن أبي حفصة.
١٨ أورده العجلوني في كشف الخفاء. [٢/٢٤٣]
١٩ رواه أبو داوود في سننه. [٤/٢٧٦]
٢٠ رواه عبد الله القرشي في إصلاح المال. [١/١٢١]

ولذلك أمر الله تعالى محمدًا بالاستعاذة منه فقال جلَّ من قائلٍ: «قل أعوذ برب الفلق» إلى قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (سورة الفلق، ٥/١١٣) وما عليَّ من الحاسد وغرضه الفاسد ويكفيه ما ابتلي به من هذه الرذيلة ومعاداته لأهل الفضيلة.

٥ ولرداءة هذا الخُلق وضلال من أفسده قال الشاعر:

أَلَا قُلْ لِمَنْ بَاتَ حَاسِدَاً ... أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأَتَ الأَدَبْ

أَسَأَتَ عَلَى اللهِ فِي فِعْلِهِ ... بِأَنَّكَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبْ[٢١]

فَجَازَاكَ عَنْهُ بِأَنْ زَادَنِي ... وَسَدَّ عَلَيْكَ طَرِيْقَ الطَّلَبْ

ولا غرو أن يحسدوني أَولا ترى قول الشاعر:

١٠ وَلَيْسَ بِعَارٍ أَنْ يُسَبَّ مُسَوّد ... ويُحْسَدَ وَالمحْسُودُ فِي مَوْضِعِ القُطْبِ

ولا ذنب للمحسود وقد آتاه الله فضله ولولا ذلك لما تمنى الحاسد أن يكون مثله. ولا عتَبَ على من حسد مرموقا يُغادر من سابقه في حلبات العلم مسبوقا وقد وطئ بقدمه قمم الكواكب حتى صار مفخرا للأباعد والأقارب فما ابعد عن الكمال من يُعادى الحُسّاد ولقد أحسن من قال هذا البيت وأجاد:

١٥ أُعذُرْ حَسُودَكَ فِيمَا قَدْ خُصِّصِتَ بِهِ ... إِنَّ العُلَى حَسَنٌ فِي مِثْلِهَا الحَسَدُ

هذا وقد نسبوني إلى دعوى النبوَّة أيضًا بسبب كلمات من مصطلحات الصوفية كلفظ التلاشي والفناء:

---

٢١ للشاعر العباسي منصور بن إسماعيل الفقيه.

لَقَدْ ضَرَبُونِي فِي هَوَى أُمِّ جَعْفَرٍ بِكُلِّ عَصَا حَتّى رُمِتُ بِمغْرَفَةٍ

وما أبرد التعصُّب إذا انتهى إلى هذا الحدِّ وما أقبح الحسد ولا سيَّما بالعالم إذا حمله على أمثال ذلك ثمَّ لا يستحي أن ينسب مسلمًا فضلا عن عالمٍ إلى قبائح معتقدات يستنكف أن يعتقدها المجوس والنصارى الذين يكذبون سيِّد ٥ الأنبياء، لا بل ولا يعتقدها البراهمة الذين هم لأصل النبوَّة منكرون، والزنادقة الذين ينكرون المرسِل مع الرسل:

رَمَونِي وإِيّاهَا بِشَنْعَاءَ هُمْ بِها أَحَقُّ أَدَالَ اللهُ مِنْهُمْ فَعَجَّلا
بِأَمْرٍ تَرَكْنَاهُ وَرَبُّ مُحَمَّدٍ عَيَانًا فَإِمَّا عِفَّةً وَتَجَمُّلا[٢٢]

وأمثال هذه التمويهات لا تخفى على من جالس العلماء وزاحم بركبته ١٠ الفضلاء حتى وقف على الفرق بين الباطل والحقِّ وعرف المذاهب المبتدعة والأباطيل المخترعة وتحقَّق ما أدرج عليه السلف الصالح من سلوك الصراط المستقيم وملازمة المنهج القويم. وما أليق ما قال الكوفي بهذه الحال فقد بيَّن أنَّ أهلَ الفضل لا يضرُّهم ما يقول حسدة الجهَّال:

وإِذَا أَتَتَكَ مَذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي فَاضِلُ[٢٣]

١٥ وكأنَّه نظر إلى الأوَّل وبيته الأغرّ المُحجّل:

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ[٢٤]

وغير خاف على العلماء أن لكلِّ فريقٍ اصطلاحًا متَّفقًا عليه فيما بينهم. ولا يعرف اصطلاحات كلِّ فريقٍ إلا من سلك طريقهم فربَّما لا يعرف النحوي اصطلاحات النسَّابين من الشعب والقبيلة والبطن والفخذ والعشيرة والعَمارة والتذييل وضرب النساء.

---

٢٢ للشاعر العباسي محمد بن صالح العلوي.
٢٣ للمتنبي.
٢٤ لأبي تمام.

كما لا يعرف النسابة اصطلاح النحَّاة من المُعرب والمبني والمبتدأ والخبر والجملة المركَّبة من الفعل والفاعل والمعرفة والنكرة واللازم والمتعدِّي والمفرد والمضاف والمرخم والمفعول له ومعه والأسماء المنصرفة وغير المنصرفة. وكذا التصريفي لا يعرف اصطلاح المتكلِّم من الجوهر والعرض والتحيز والجسم والكون والحركة
٥ والسكون والاجتماع والكسب. كما لا يعرف المتكلِّم اصطلاح أهل التصريف من ذوات الثلاثة وذوات الأربعة والأجوف والناقص واللفيف والزيادة والإبدال والإدغام اللهمَّ إلا إذا نظر في العلمين جميعا فيكون عارفًا بالاصطلاحين. وكذلك الفقيه لا يعرف اصطلاح المحدثين من الضعيف والمتروك والغريب والعزيز والمشهور. ولا المحدث يعرف اصطلاح الفقهاء من العقد والشُفعة والفرائض والدور والإيلاء والظهار والكتابة.

١٠ وكذلك المحاسب لا يعرف ما اصطلح عليه الأصوليون من الفرع والأصل والعلة والحكم والواجب والمندوب والمكروه والمحظور والمباح والموسع والمُضيق والمُعين والمُخير والمُقيد والمُطلق والخاص والعام والناسخ والمنسوخ والتقليد والاجتهاد. كما لا يعرف الأصولي مصطلحات الحُساب من الجمع والتفريق والجذر والكعب والأصم والمفتوح والشيء والمال وأموال الأموال وكعاب الكعاب. والعروضي لا
١٥ يعرف مراد المنطقي بالمحمول والموضوع والسلب والإيجاب والحملي والشرطي والضرب والشكل. كما لا يعرف المنطقي مراد العروضي من السبب والوتد والفاصلة والبحر والضرب والطويل والمديد والبسيط والمتقارب.

والمقصود من تمهيد هذه القاعدة أنَّ لكُلِّ علمٍ رجالا عليه مدارهم. ويجب الرجوع في تعرف اصطلاحاتهم إليه. فكذا الصوفية لهم اصطلاحات
٢٠ فيما بينهم لا يعرف معانيها غيرهم. وأعني بالصوفية أقوامًا أقبلوا بكُنْهِ الهمَّة على الله واشتغلوا بسلوك طريقه. وأوَّل طريقتهم مجاهدة العدوِّ وملازمة الذكر. وهم الموعودون في الكتاب الأعظم بهداية السبيل كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (سورة العنكبوت، ٦٩/٢٩)

فمن لم يعرف من المجاهدة وهي أوَّل طريقة الصوفية إلا اسمها فكيف يجوز أن يتصرَّف في اصطلاحاتهم التي لا يعرف معانيها إلا المنتهون! ومن لم يعرف من الفقه إلا الاسم كيف يجوز له أن يتصرَّف في ألفاظٍ لا يعرف معانيها إلا الأكابر من الفقهاء!

٥ ولم يكن السالكون لطريق الله في الأعصار السالفة والقرون الأوَّل يُعرفون باسم التصوُّف، وإنَّما الصوفي لفظ اشتهر في القرن الثالث. وأوَّل من سُمِّيَ ببغداد بهذا الاسم عبدك الصوفي وهو من كبار المشايخ وقُدمائهم وكان قبل بِشر بن الحارث الحافي والسري بن المغلّس السقطي.

والمجاهدة لفظ مفرد كالفقه والطب والنحو وكما لا يعرف معاني هذه الألفاظ ١٠ إلا من نظر في هذه العلوم نظرًا محيطًا بجُملها وتفاصيلها فكذلك المجاهدة علم برأسها ولا يعرفه إلا من نظر فيه نظرًا شافيًا. وعلى هذا العلم يشتمل إحياء علوم الدين من أوَّله إلى آخره ولم يُصنَّف في بدء الإسلام في هذا العلم مثل قوت القلوب لأبي طالب المكِّي على ما أظنُّ. ثمَّ علمُ المجاهدة إذا حصل للطالب لم يُغنِ ذلك عنه شيئًا دون أنْ يجاهدَ كما أنَّ المريضَ وإنْ كان حاذقًا في الطبِّ ١٥ لم يكفِه ذلك دون أنْ يشربَ الدواء الكريهَ المذاق. ثمَّ إذا حصَّل علمَ المجاهدة وجاهد في الله حقَّ جهاده هداه اللهُ سبيلَه وعلَّمه ما لم يكن يعلم كما قال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾ (سورة الأنفال، ٢٩/٨) قال ابن عباس: أي نورا تفرقون به بين الحق والباطل. والى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ (سورة النور، ٥٤/٢٤) وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا ٢٠ عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾. (سورة الأعراف، ٩٦/٧)

وهذه هي الحكمة المشار إليها في قوله تعال: ﴿يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (سورة البقرة ٢/٢٦٩) والحكمة لا تحصل من القال والقيل بل هي ميراث الصمت كما قال عليه السلام: «إذا رأيتم الرجل صموتًا وقورًا فاقتربوا منه فإنَّه يُلقَّن الحكمة أو يُلقّى.»[٢٥] على اختلاف الروايتيْن.

٥ «ورأس الحكمة مخافة الله.»[٢٦] كما يشهد له نصُّ الزبور.

ولم يخلُ في الإسلام قرن من القرون عن جماعة كانوا يتكلَّمون بهذه العلوم فكان بعضهم يتكلَّم في علم السلوك وبعضهم في علم الوصول وبعضهم كان يتكلَّم على الناس عامة وبعضهم على أصحابه خاصة. وقال الجنيد رضي الله عنه: صاحبُنا في هذا الأمر المشار الذي أشار إلى ما تضمَّنت القلوب وأومأ إلى

١٠ حقائقه بعد نبيّنا صلَّى الله عليه وسلَّم عليُّ بن أبي طالب عليه السلام.

وسُئل الجنيدُ عن عليِّ بن أبي طالب عليه السلام ومعرفته بعلم التصوُّف فقال: «أمير المؤمنين علي عليه السلام لو تفرَّغ إلينا من الحروب لنُقل عنه إلينا من هذا العلم ما يقوم له القلوب. ذاك امرؤٌ أُعْطِيَ العلمَ اللدنِّي.» وقال الجنيد: «لو علمتُ أنَّ لله تعالى عَلمًا تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلَّم

١٥ فيه مع أصحابنا وإخواننا لسعيت إليه ولقصدته.» وكان الجنيد يُنشد كثيرًا:

عِلْمُ التَّصَوُّفِ عِلْمٌ لَيْسَ يَعْرِفُهُ إلاَّ أَخُو فِطْنَةٍ بِالْفَهْمِ مَوْصُوفُ

وَلَيْسَ يَعْرِفُهُ مَنْ لَيْسَ يَشْهَدُهُ وَكَيْفَ يَشْهُدُ ضَوءَ الشَّمْسِ مَكْفُوفُ

وكان الجنيد وأحمد بن وهب الزيات يتكلَّمان في علم الصوفية والجنيد يستفيد منه ويقدّمه على نفسه ولم يتكلَّم الجنيد على الناس في الجامع حتى مات أحمد.

٢٥ رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت. [١/٢٨٨]
٢٦ رواه الديلمي في الفردوس. [٢/٢٧٠]

وكان يقول: فقدنا علوم الحقائق بموت أحمد الزيَّات. وقال الجنيد: سألني أبو بكر الكسائي عن ألف مسألة وددت أنَّها لم تقع في أيدي الناس وأبو بكر هذا من كبار المشايخ وهو الذي قال فيه الجنيد: لم يقطع إلينا جسر النهروان مثل أبي بكر الكسائي.

وها أنا أذكر جماعة ممَّنْ تكلَّم في هذه العلوم ليعلم أنَّه لم يخلُ عصرٌ عنهم؛ فممَّن تكلَّم على الناس عامَّةً إمام الأئمة أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري. وكان يُرمى في عصره بمذهب القدرية وهو أجلُّ قدرًا من أن يُظنَّ به ذلك. وما أصدق القائل:

مَا ضَرَّ تَغْلِبَ وَائِلٍ أَهَجَوتَهَا　　أَمْ بُلْتَ حَيثُ تَنَاطَحَ البَحْرَانِ![27]

وقد صنف أبو نعيم الأصفهاني كتابًا وسماه ذبُّ القدر عن الحسن بن أبي الحسن البصري ولما رآه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أُعجب به وأثنى عليه وأذِن له في الكلام ومنع جميع من كان يتكلَّم على الناس بالبصرة وقال: هذه بدعة لم نعهدها في العصر الأوَّل. وكان الحسن يُشبَّه كلامه بكلام الأنبياء وهديه بهدي الصحابة. وكان أنسُ بن مالك إذا سئل عن شيء يقول: سلوا مولانا الحسن.

وكان أكثر كلامه في آفات الأعمال ووساوس الصدور وخفايا الصفات وشهوات النفوس. وقيل له يا أبا سعيد نراك تتكلَّم بكلام ليس يُسمع من غيرك فمن أين أخذته؟ قال: من حذيفة بن اليمان. وكان حذيفة يتكلَّم بكلام لا يُسمع من غيره من الصحابة فسئل عن ذلك فقال: كان الناس يسألون عنِّي رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عن الخير ويقولون: يا رسول الله، ما لمن عمل كذا وكذا؟

---

٢٧ للشاعر الأموي، الفرزدق.

وكنت أسأله عن الشرّ فأقول: ما يُفسد كذا وكذا؟ فلمّا رآني رسول الله أسأل عن آفات الأعمال خصَّني بهذا العلم. وكان يُسمَّى صاحب السرِّ وقد أُفرد من بين الصحابة بعلم النفاق وهو فيما قاله علماؤنا سبعون بابًا لا يعرف دقائقها وغوامضها إلا المخصوصون به من السالكين الراسخين في العلم. وكان عمر ٥ وعثمان وأكابر الصحابة يسألونه عن الفتن العامّة والخاصّة فيخبرهم بها.

ومن قدماء الوعاظ الذين يتكلَّمون على الناس: أبو السوار حسان بن حُريث العَدوي وطلق بن حبيب وهو الذي قال فيه السختياني: «ما رأيت أعبد من طلق.»

ومنهم فرقد السّنجيُّ وهو الذي اعترض على الحسن في كلامه حين سمعه منه فقال: «ما هكذا يقول فقهاؤنا.» فقال له الحسن: «ثكلتْك أمّك فُريقد، وهل ١٠ رأيت بعينيْك قطّ فقيهًا؟ الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه.»

ومنهم أبو عاصم المذكِّر وهو من قدماء مشايخ الشام وصالح المري الذي حضر مجلسه سفيانُ الثوري فأعجبه كلامه وقال: «هو نذير قومه.»

ومنهم عبد العزيز بن سلمان وهو الذي دعا لِمُقعد في مجلسه فانصرف إلى أهله ماشيًا.

١٥ ومنهم الفضل بن عيسى الرقاشي. ومن مشاهير المشايخ أبو علي الحسن المسوحي كان يتكلَّم في مسجد المدينة وكان الجنيد يحضر مجلسه ويأخذ عنه إلا أنّه كان لا يتكلَّم في علم الأصول بل في علم السلوك.

ومنهم أبو شعيب المرادي واسمه المقفّع خُيّر في بعض مُكاشفاته بين أشياء فاختار من جملتها البلاء فذهبت عيناه ويداه ورجلاه.

ومن كبارهم محمَّد بن إبراهيم المعروف بأبي حمزة البغدادي البزاز وكان له في جميع علوم الصوفيّة لسانٌ، وكان أحمد بن حنبل يسأله عن أشياء ويقول: «ما تقول في كذا وكذا يا صوفي؟» وهو أوّل من تكلَّم ببغداد في هذه العلوم وظهر له بطرسوس قبولٌ عظيمٌ وأقبل عليه الناسُ ثمَّ سمعوا منه في حالة سُكره كلامًا شهِدوا عليه بالزندقة ومذهب الحلولية، وأخرجوه من طرسوس وأُغير على دوابِّه ونودي عليها: «هذه دوابُّ الزنديق!» ولما أُخرج من البلد جعل يُنشد:

لَكَ مِنْ قَلْبِيَ المكَانُ الْمَصُونُ كُلُّ عَتْبٍ عَليَّ فِيكَ يَهُونُ

ومنهم العلم المشهور أبو القاسم الجنيد بن محمَّد، ونصر بن رجاء وهو من أقران الجنيد.

ومنهم أبو عبد الله البلخي وأبو الحسين بن شمعون وكان يتكلَّم على الناس في مسجد بغداد. وأبو الحسين عمرو بن عثمان المصري وله في علم التصوُّف مواعظ كثيرة.

ومنهم موسى الأشج وهو أوّل من تكلَّم بالبصرة في علوم التوكُّل والمحبَّة والشوق. وكان طريق أهل البصرة قبله التزهُّد والاجتهاد ولزوم الكسب وملازمة الصمت حتى فتح الله علوم المعارف على موسى الأشج.

ومن مشايخ البصرة فهران الرفاء، تكلَّم على الناس ببغداد.

ومن كبارهم أبو جعفر الصيدلاني، وكان يتكلَّم على الناس بمكَّة.

ومن مشاهيرهم أبو الحسن بن سالم وهو من أصحاب سهل بن عبد الله التستري وإليه ينسب أصحابه ويقال لهم السالميّة. ومنهم أبو علي الأسواري، وأبو بكر بن عبد العزيز وهو من مشايخ مكة، وأبو سعيد القلانسي، والنيسابوري، ويحيى بن معاذ واعظ أهل زمانه، وأبو عثمان سعيد بن عثمان الواعظ الرازيان

وأبو السرى منصور بن عمار البوشنجي، وأبو بكر الشاشي، وأبو سعد الأعلم، وأبو بكر الدبيلي، وأبو العبَّاس أحمد بن محمَّد الدينوري وكان له في هذه العلوم لسان حسن، وأبو عبيد الطوسي، وأبو علي الثقفي وهو من كبار العلماء بخراسان واسمه محمَّد بن عبد الوهاب وهو القائل: «لو أنّ رجلا جمع العلوم كلّها وصحب طوائف الناس لم يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة على يدي شيخ.» ٥

ومن كبارهم علي الطيان ويُمنى الفسويان وبلديهما أبو إسحق إبراهيم فهؤلاء كانوا يتكلَّمون على الناس عامّةً.

ومنهم من لم يكن يتكلَّم على الناس عامّةً بل على أصحابه خاصّةً ومنهم: عامر بن عبد الله بن قيس. وقد أثنى عليه إمام الأئمّة الحسن البصري ومالك بن دينار وهو من كبار المتنسّكين والمتكلّمين في الحقائق. وأبو الشعثاء جابر بن ١٠ زيد وهو الذي يقول فيه ابن عباس: «لو نزل أهل البصرة عند فتيا جابر بن زيد لوسعتهم.» وأبو عمران الجوني وكان كلامه في الحكمة، وأبو واثلة إياس بن معاوية وهو القائل: «من لا يعرف عيبه فهو أحمق.»

وأبو مصاهر رياح القيسي وكان كلامه في أعالي المقامات من المحبّة والشوق والقرب. ١٥

والفضيل بن عياض، وعلي بن المدني، وأحمد بن وهب الزيات، وعبد الله السائح، وعلي بن عيسى، وأبو الحسن سمنون بن حمزة، وأبو سعيد القرشي، وأبو الحسن بن حديق، وزكريّا بن محارب، وأبو حسن، وأبو عليّ الوراق، وأبو علي بن زيزا وهو من كبار أصحاب الجنيد، وأبو القاسم الدقّاق وكانا يتكلَّمان في علوم الخطرات. ٢٠

وأبو محمَّد المرتعش والخرساني وهو القائل: «من لم يكن على الله غيورًا لم يكن الله عليه غيورًا.» وأبو علي السُلمي وعلي الحمّال وهو القائل: «ذهبتْ حقائقُ التصوُّف وبقيتْ شرائطُها. وجاءت طائفة يطلبون الراحة ويتوهّمون ذلك معرفةً فإنَّا لله وإنّا إليه راجعون!»

وأبو هاشم الزهاد، وإبراهيم بن فاتك وكان الجنيد يكرمه، وأحمد بن عطاء الروذباري، وأبو الفيض ذو النون المصري، أبو سليمان العبسي المعروف بالدارائي واسمه عبد الرحمن بن أحمد وأخوه داود بن أحمد. وسهل بن عبد الله التستري، وأبو عبد الله بن مالك وله رسالة معروفة، وأبو الأديان، وأبو الليث المغربي، وأبو سعيد ٥ الفنوني وهو من كبار صوفيّة البصرة، وأبو حاتم العطار، وجميل بن الحسن العتكي، وأبو جعفر الوساوسيّ واسمه محمَّد بن إسماعيل، وأبو بشر بن منصور، وعثمان بن صخر العقيلي، وأبو سعيد العصفري، وسليمان الخفار، وأبو ثوابة القرشي، وأبو يعقوب الأبلي، وعبد الله بن عفّان، وأبو عبد الله البصري، ومحمَّد بن أبي عائشة، وعمرو بن عثمان المكِّي، وعبد العزيز البحراني، وأبو الحسن علي بن بابويه، وأبو بكر ١٠ الواسطي، والربيع عبد الرحمن وهو القائل: «إن لله عبادًا هم في الدنيا مكتئبون وإلى الآخرة متطلّعون، قد نفذت أبصار قلوبهم في الملكوت فرأت فيها ما وجب من ثواب الله فازدادت بذلك جدًّا واجتهادًا عند معاينة أبصار قلوبهم فهم الذين لا راحةَ لهم في الدنيا وهم الذين تقرّ أعينُهم غدًا.»

ومنهم أبو عبد الله السندي وهو من أصحاب أبي يزيد وأبو بكر الزنجاني. ١٥ وإبراهيم بن يحيى التبريزي وأبو العباس السمان وحاتم الأصمّ وأبو يزيد البسطامي وأبو أحمد الغزال النيسابوري وجعفر النسوي وأبو الحسين أحمد بن محمد الخوارزمي وعبد الله بن محمد المنازل وأبو نصر فتح الندي وأبو بكر الطمستاني وأبو الحسين بن هند الفسوي وأبو اسحق إبراهيم الدباغ والحسن بن حمويه وأبو بكر محمد الجوري وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم الخشوعي وأبو ٢٠ عبد الله النجار وابن بطة وهما من أصحاب علي بن سهل وأحمد بن شعيب وعبيد الملقب بالمجنون. فهؤلاء كلهم كانوا يتكلَّمون في هذه العلوم وكلُّهم انقرضوا قبل الثلاثمائة وقيل منهم من كانوا بعدها.

وقد تكلَّم جماعةٌ من النساء أيضًا على الرجال والنساء، كرابعة العدوية. وكان الكبار والسلف يسمعون كلامَها كسفيان الثوري وقد سُلِّم لها ذلك وهي التي قالت لسفيان: «نعم الرجل أنت لولا أنَّك تحبُّ الدنيا.» وخطبها عبد الواحد بن زيد مع علوِّ شأنه فهجرته أيَّامًا حتى شفع له إليها أخواته، فلمَّا دخل عليها قالت له: يا شهواني! اطلبْ شهوانيةً مثلك. ٥

ومنهنَّ شعوانة الابلية كانت تتكلَّم على العُبَّاد. بلغ بها خشية الله مبلغًا أعجزها عن العبادة ثمَّ رأت رؤيا فسُري عنها ورجعت إلى ما كانت عليه من العبادة.

ومنهنَّ بحرية؛ بكتْ حتى ذهب بصرُها. وعنيدة؛ جدة أبي الخير التيناني الأقطع كان لها خمس مائة تلميذٍ من الرجال والنساء. وعائشة النيسابورية؛ امرأة أحمد بن السري، فكانت تتكلَّم على النساء بنيسابور وتأدَّبتْ بأبي عثمان. ١٠

ومنهنَّ فاطمة بنت أبي بكر الكتَّاني؛ ماتتْ بين يدي سمنون وهو يتكلَّم في المحبَّة ومات معها ثلاثة نفرٍ من الرجال.

ومن مشاهير من صنَّف في هذه العلوم وقدمائهم: الحارث بن أسد المحاسبي وأبو إسحاق بن أحمد الخوَّاص وأبو القاسم الجنيد سيِّد الطائفة والمشار إليه والمعول عليه وعلي بن إبراهيم الشقيقي وسخت العسكري وأبو عبد الله محمَّد بن علي الترمذي وهو القائل: ما صنفت صرفا عن تدبير ولكن كنت أتسلَّى بمُصنَّفاتي إذا اشتدَّ عليَّ الوقت. ١٥

ومنهم أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذي وأبو جعفر النيسابوري واسمه أحمد بن حمدان بن علي بن سنان وكان الجنيد يكاتبه وأحمد بن محمد الفرخكي وأبو عبد الله محمد بن يوسف البناء الأصفهاني وأبو عبد الله محمد بن خفيف ٢٠

وأبو نصر السراج والطوسي وأبو طالب المكي وله في هذه العلوم كلام لـم يُسبق إلى مثله فيما رأيت وعلى ما أظن وهذا حديث يطول.

وانا أراجع ما كنت بصدده وأقول: كما أن لكل قوم من العلماء ألفاظا مصطلحا عليها ولا بد من الرجوع إليهم في معانيها وكذا إذا سمع من الصوفية مصطلحاتهم ٥ ينبغي أن يرجع إليهم في بيان حقائقها كلفظ البقاء والفناء والعدم والتلاشي والقبض والبسط والسكر والصحو والإثبات والمحو والحضور والغيبة والعلم والمعرفة والوجد والكشف والمقام والحال والفراق والوصال والإسقاط والاتّصال والجمع والتفرقة والذوق والفهم والوصول والسلوك والشوق والأنس والقرب والتجلّي والرؤية والمشاهدة وكقولهم: بقي فلان بلا هو وانسلخ من جلدته.

١٠ وينبغي للعاقل المنصف إذا سمع هذه الألفاظ أن يراجع في معانيها القائل ويقول له: ما الذي عنيت بهذه الألفاظ؟ والحكم على القائل قبل استفساره عن المراد بهذه الألفاظ بالزندقة والإلحاد رمي في عماية.

وكتب بعض الصوفية إلى بعض الأئمة أبياتًا يسأله فيها عن معاني ألفاظ من مصطلحاتهم ولم أرَ فيها ما يصلح لهذه اللمعة إلا هذا البيت:

١٥ وإِذَا قَالَ قَائِلٌ هُوَ بِلا هُوَ وأَنَا لَا أَنَا فَمَاذَا يُرِيدُ

والغرض من هذا كلِّه أنّ الرسالة التي عملتها في حال الصِبى فاتّخذها الحاسدون من أعدائي ذريعةً توصلوا بها إلى إيذائي. وقد ذكرت فيها من ألفاظ الصوفيّة طُرَفًا كقولي فيها: «أشرقت سلطنةُ الجلالة الأزليّة فبقي القلم وفني الكاتب.» وكقولي: «غشيتْني الهويّةُ القديمة فاستغرقتْ هويّتي الحادثة.» وكقولي: ٢٠ «طار الطائرُ إلى عشِّه.» وكقولي: «لو ظهر ممَّا جرى بينهما ذرّة لتلاشى العرش والكرسي.» إلى كلمات أُخَر من هذا الجنس، وقد شدّدوا عليّ الإنكارَ في تلك الكلمات وزعموا أنّ ذلك كفرٌ وزندقةٌ ودعوى النبوَّة.

وأنا أذكر طُرَفًا من حكايات المشايخ وألفاظهم ليُستدلَّ بها على أنَّ الصوفيَّة يُطلقون هذه الألفاظ فيما بينهم فإنَّها عندهم متعارفة ولا يلزم منها شيء وكتبُهم بها مشحونةٌ. فمن ذلك قول الواسطي: «إنَّ الله تعالى أبرز مِن صنعِه ما أبرز دلالةً على ربوبيَّته ثمَّ أبطل ما أبدى؛ فكلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَه، والخلق في عظمته كهباء لا خطرَ له وليس للخلق إليه طريقٌ إلا من حيث جعلَ لهم من طريق العلم أنْ أثبتوه كما عقلوه. وهذا المعنى هو الذي أوردته في فصل من تلك الرسالة وكتبت فيه: «الحقّ إنّ الله هو الكثير والكلّ وإنّ ما سواه هو الواحد والجزء ومعناه أنَّ كلَّ الموجودات بالنسبة إلى عظمة ذاته كالجزء بالنسبة إلى الكلِّ، وكالواحد بالنسبة إلى الكثير؛ إذ كلُّ الموجودات قطرةٌ من بحر قدرته.» ولم أُرِدْ بذلك أنَّ اللهَ كثيرٌ بأجزائه، تعالى الله علوًّا كبيرًا عن قبول الانقسام. ويقرب من ذلك قولهم: إنَّ جبريل والعرش والكرسي مع الملكوت كلِّها كرملة فيما وراء الملكوت بل أقلُّ من ذلك. وليس المراد من ذلك أنَّ الله أكبر من العالم بكثرة الأجزاء بل بعظمة الذات. والمقصود منه الردّ على الفلاسفة حيث قالوا: إن الله لم يخلق إلا شيئًا واحدًا. وكيف يستقيم هذا الاعتراض وقد ذكرت في مواضع كثيرة من تلك الرسالة أن القديم لا يتصور فيه إثنينية البتة وكذلك تخيلوا في بعض ألفاظها دعوى للرؤية الحقيقيّة التي طلبها موسى عليه السلام فقيل له: «لن تراني.» وغفلوا عن النصّ الصريح الذي لا يقبل تأويلا؛ أنّ الله لا يُتصوّر أنْ يراه أحدٌ في الدنيا لا ولي ولا نبيّ غير محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم.

وذكرت في الروح كلامًا مطابقًا لكلام المشايخ من حيث المعنى وإن كانا لا يتفقان في اللفظ. وقد كثر كلام الصوفيّة في الروح ومن ذلك ما قال الواسطي: أظهر الله الروح من جلاله وجماله ولولا أنّه سُتر لسجد له كل كافر. فمتى خرجت أنوار العقول والفهوم تلاشت في أنوار الروح تلاشى أنوار الكواكب ٥ والقمر في نور الشمس. ومنها يُتحقق انهم لا يعنون بالتلاشي عدم الشيء في ذاته بل اختفاؤه بالنسبة إلى مدرِكه.

وقال أبو سعيد الخراز. إن الله جذب أرواح أوليائه إليه ولذّذها بذكره. وهذا مطابق لقولي في تلك الرسالة: طار طائر إلى عشه.

وقال أبو الطيب السامري: المعرفة طلوع الحق على الأسرار بمواصلة الأنوار.

١٠ وقال الواسطي: إذا ظهر الحقُّ على السرائر لم يبق فيها فضلة لرجاء ولا خوف. وهذا مرادي من قولي: غشيته الهوية الأزلية.

وقال الجنيد: نفس الصوفي إذا هاج من الفؤاد لم يأت على شيء إلا واحرقه حتى العرش واحتراق العرش كتلاشيه. ومن غاب عن نفسه فقد اتصل بربه واحترق في حقه كل ما سواه كما حكي عن أبي سعيد الخراز في حكاية انه قال:

١٥ تهت في البادية فهتف بي هاتف قال:

فَلَوْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الوُجُودِ حَقِيقَةً   لَغِبْتَ عَنِ الأَكْوَانِ وَالعَرْشِ والكُرْسِيِّ

ومن اتقى الله في خلواته افضى به ذلك إلى هذه الحال كما قال أبو محمد الحريري: بصفو العبودية تُنال الحرية وبالحيرة يُنال التجلي والرؤية. وليس المراد بهذه الرؤية ما طلب موسى من ربه بل شيء آخر ظاهر الحقيقة عند أهلها. والى ٢٠ هذا أشار الحريري أيضًا بقوله: من لم يحكم فيما بينه وبين الله بالتقوى والمُراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة.

وقال أبو بكر التفليسي: التصوُّف حال لا يقوم له قلب ولا عقل.

وقال أبو الحسن شيخ سمنون: التصوُّف لا حال ولا زمان بل إشارة متلفة ولوائح مُحرقة.

وقال الخُلدي: التصوُّف حال تظهر فيها عين الربوبية وتضمحل فيها عين العبودية وهذا هو مرادي حيث أقول: فتلاشى العلم والعقل والقلب وبقي الكاتب بلا هو.

وقال المُرتعش: التصوُّف حال ضنّ بها صاحبها على الكونين فذهب إلى الحق وذهب عن ذهابه فكان الحق عزَّ وجلَّ ولم يكن.

قال أبو الحسن الأسراري: التصوُّف هو سهوي عني وتيقظي بربي.

وقال ذو النون المصري: إن لله عبادا ينظرون باعين القلوب إلى محجوب الغيوب فتسيح أرواحهم في ملكوت السماء ثمَّ تعود إليهم بأطيب جنى من ثمار السرور وهذا هو مرادي من قولي: طار الطائر إلى عشه ثمَّ رجع إلى القفص. ومن ذلك انه تواجد رجل في مجلس يحيى بن معاذ فقيل له: ما هذا؟ فقال غابت صفات الإنسانية وظهرت أحكام الربانية. وسئل أبو الفوارس الكردي عن التوحيد فقال: ما يُفتح منه عليك لا بك.

وقال سليمان بن عبد الله: كل نفس يكون فيه ذكر الله فهو متصل بالعرش. وقال أبو حامد الإصطخري: سألت أبا يعقوب الزابلي عن التصوُّف فقال: هو أنْ يضمحل عنك عين الإنسانية ومعالم الأينية. وقال حبشي بن داود: «التصوُّف هو إرادة الحقِّ في الخلق بلا خلق.» وقال يحيى بن معاذ: «من رأى مع الحبيب غير الحبيب لم يرَ الحبيب.»

وكثير من تلك الرسالة يدور على هذه القواعد. وكلُّ لفظةٍ من هذه الحكايات تحتاج إلى تمهيد قواعد وتأسيس أصول من علم الصوفية حتى يُتحقّق معناها ولست الآن أشرح ذلك فإنَّه يستدعي فراغ القلب وخلوَّ الهمِّ وأنا مشغول الخاطر متحيّر فيما ابتلاني به التقدير من الحبس والقيد وسائر الأنكال:

٥ صُبَّتْ عَليَّ مَصَائِبُ لَوْ أَنَّهَا صُبَّتْ عَلَى الأيَّامِ عُدْنَ لَيَالِيَا

ولم أصنِّفْ تلك الرسالة إلا متوقِّعا لحُسن الاسم في الحياة وترحُّم يلحقني ممَّن يطالعها بعد الممات. ولو خطر ببالي أنَّه يعقُبني ما رأيته وأراه لما أقدمت عليه قطُّ:

غَرَسْتُ غُرُوسًا كُنْتُ أَرْجُو لُقَاحَهَا وَآمُلُ يَوْمًا أَنْ تَطِيبَ جُنَاتُها

١٠ فإنْ أَثْمَرَتْ غيرَ الذي كُنْتُ آمِلاً فَلا ذَنْبَ لِي إنْ حَنْظَلَتْ نَخلاَتُها

وإذا لم يوجب أحد من العلماء والصوفية عن تلك الكلمات لِعذر لهم عندي مقبول، ولا يمكنني ذكره فإنَّه ذو عرض وطول، تناولت القلم ومعولي عليه وأجبت عن قول المعترض معتذرا بهذه الرسالة إليه.

وَمَنْ يَرْجُ مَعْرُوفَ البَعِيدِ فَإنَّما يَدِي عَوَّلَتْ فِي النَّائِبَاتِ عَلى يَدِي

١٥ كيف وفي كلمات الصوفية أشياء لو نظر فيها الناظر من طريق التعنُّت والإنكار لوجد فيها مجال الاعتراض رحبًا؛ كما حُكي عن معروف الكرخي أنَّه قال لرجل: «أُدْعُ اللهَ تعالى أنْ يردَّ عليَّ ذرَّةً من البشرية.» فإنَّه شنيع الظاهر إذ يقول المتعنّت إنَّه فضَّل نفسَه على محمَّد المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم فإنَّه قال:

«أنا بشر، أغضب كما يغضب البشر.»[٢٨] وقد ادَّعى معروف أنَّه لم يبقَ فيه أثرُ البشرية. وهذا عند أهل التحقيق ظاهر ولكن لا يعرفه غيرهم إذ كلُّ علمٍ لا يعرفه إلا من يخوض فيه ويُفني عمرَه في البحث عن حقائقه ومعانيه.

وعلم الصوفية أشرف العلوم وأغمضها ولا يعرف جليَّه وخفيَّه غيرُهم. وأنا أورد إشكالا لا ينحلُّ إلا في علمِهم ليظهرَ للمدَّعي أنَّه لا خبرَ عنده من علومِهم. فقد صحَّ عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه أخبر غيرَ مرَّةٍ عن نفسه وعن غيره من الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم بأنَّهم من أهل الجنَّة. وقد ورد في الصحاح أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال في حديثٍ له طويلٍ: «فأدخل على ربّي فأخِرُّ له ساجدًا وأشفع لأمَّتي.»

وقد ورد في الصحيحين عنه أيضًا أنَّه قال وهو على المنبر:» والذي نفس محمَّدٌ بيدِه لا أدري أمِنْ أهلِ الجنَّة أنا أم من أهل النار.»[٢٩] وهذا إشكالٌ واقعٌ وجوابه ظاهرٌ عند من سلك طريق الصوفية ولا يعرف الشطحيات.

وقول أبي يزيد: إنَّ الله تعالى اطَّلع على العالم فقال: يا أبا يزيد كلُّهم عبيدي غيرك فأخرجني من العبودية. فمن الظاهر أن المتعنّت لو قال: كان رسولُ الله يقول: «أنا عبد» وذُكر عن الأنبياء أنَّهم قالوا واجعلني برحمتك من عبادك فكيف يجوز لغيرهم أن يقول: أخرجني من العبودية؟! وهذا إنَّما يُشكل على من لم يسلك طريق الصوفية وجوابه عندهم أظهر من الشمس.

وأظهر من قول أبي يزيد قول الشبلي حيث سمع ما قاله أبو يزيد فقال لقد كاشفني الحق بأقل من ذلك. فقال: كل الخلائق عبيدي غيرك فإنَّك أنا.

ومن ذلك قول الشبلي لمّا قيل له: هل تعلم لنفسك فرحا؟ فقال: نعم إذا لم أجد لله ذاكرا. فلو قال المتعنّت: هذا كفر؛ فإنَّ الأنبياء كلهم بعثوا لدعوة الخلق إلى الله والى ذكره وما كانوا يفرحون إلا بإجابة دعوته فكيف يجوز للشبلي أن يقول: لا تفرح نفسي إلا إذا لم يذكر الله أحد؟

---

٢٨ رواه أبو بكر أحمد الشيباني في الآحاد والمثاني. [٢/٢٠٠]

٢٩ لا يوجد في الصحيحين مثل هذا.

وكذلك كان الشبلي في دعائه يقول: «اللهمَّ اسكنْ أعدائي جنَّةَ عدنٍ ولا تخلني منك طرفةَ عينٍ.» فلو قال المتعنِّت إذا كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول في دعائه: «اللهمَّ إنّي أسألك الجنَّة وأعوذ بك من النار.»[٣٠] فكيف يُسلَّم لغيره أنْ يقولَ ما قاله الشبلي؟ وكذلك نُقل عن غير واحدٍ من الكبار أنَّهم قالوا: «من عبد الله بعوَضٍ فهو لئيم.»

وقال كُليب السِنجاوي وهو من أهل البلاء: «لو كان أيُّوب في الحياة لصارعته.» فلو قال المتعنِّت: «هذا القائل قد عارض الأنبياء في نبوَّتهم وهو كفر.» كان من حيث الظاهر محقًّا.

وأعجب من هذا ما حُكي عن شقيق البلخي أنَّه سأل بعض المشايخ عن صفة العارفين فقال: «الذين إذا أُعطوا شكروا وإذا مُنعوا صبروا.» فقال له شقيق: «هذه صفة الكلاب عندنا ببلخ.» قال له: «فما صفة العارفين؟» فقال: «إذا منعوا شكروا وإذا أعطوا آثروا.» فلو قال قائلٌ: «قد أثنى الله في كتابه غير مرَّةٍ على أهل الصبر والشكر فكيف يجوز لشقيقٍ أنْ يُسوِّيَهم بالكلاب؟» كان له في القلوب تأثيرٌ عظيمٌ اللهمَّ إلا عند من عرف مذاهب القوم وعاداتهم في المخاطبات.

ولمَّا دخل الواسطي نيسابور قال لأصحاب أبي عثمان: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا بالتزام الطاعة ورؤية التقصير فيها، فقال: كان يأمركم بالمجوسية المحضة هلا أمركم بالغيبة عنها برؤية مُنشئها ومُجريها. فلو قال مُعترض هذا كفر فإنَّه ادَّعى أنَّ ملازمةَ الطاعة مجوسية محضة وهذا خلاف ما قال الله تعالى وقال رسوله عليه السلام. فإنَّ القرآن من أوّله إلى آخره ثناء على الطاعة والمطيعين لكان قوله من حيث النظر إلى ظاهر الأمر والاقتصار عليه حقا.

---

٣٠ رواه أبو داود في سننه. [١/٢١٠]

واعلمْ أنَّ علمَ التصوُّفِ أقسامٌ كثيرةٌ، وكلُّ قسمٍ منها يقوم به قوم. وقلَّ من يحيط علمًا بتلك الأقسام. ومن جملة تلك الأقسام قسمٌ يُسمَّى علم السلوك وهو يشتمل على مجلَّدات كثيرة. وإلى بعض تلك الأقسام يُشير قول الشبلي حيث يقول: «كنت أكتُب الحديث والفقه ثلاثين سنة حتى أسفر الصبح فجئت إلى كلِّ ٥ من كتبت عنه فقلت: «أريد فقهَ الله تعالى.» فما كلَّمَني أحدٌ.

وممَّا أنكروه عليَّ في تلك الرسالة أنَّ اللهَ تعالى مُنزَّه عن أنْ يُدرِكه الأنبياءُ فضلا عن غيرهم، والإدراك أنْ يُحيطَ المدرِك بكمال المدرَك وهذا لا يُتصوَّر إلا لله. فإذا لا يعرف اللهَ غيرُ الله كما قال الجنيد. وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (سورة الزمر، ٦٧/٣٩) أيْ ما عرفوه حقَّ معرفته. وقال ١٠ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «لو عرفتم اللهَ حقَّ معرفته لزالتْ بدعائكم الجبالُ ولمشيتم على البحور. ولو خفتم اللهَ حقَّ خوفه لعَلِمتُم العِلم الذي ليس معه جهلٌ. وما بلغ ذلك أحدٌ.» قيل: «ولا أنت يا رسولَ الله؟» قال: «ولا أنا. اللهُ أعظم من أنْ يبلغَ أمرَه أحدٌ.»[٣١]

وقال الصدِّيق رضي الله عنه: «سبحان من لم يجعلْ للخلق سبيلا إلى معرفته ١٥ إلا بالعجز عن معرفته.»

وقال أحمد بن عطاء: «لا سبيلَ إلى معرفة الله لأحد وذلك لامتناع صمديَّته وتحقيق ربوبيَّته.»

وقيل لأبي الحسين النوري: «كيف لا تُدركه العقول ولا يُعرف إلا بالعقول؟» فقال: «كيف يُدرك ذو مدى من لا مدى له؟»

٢٠ وقيل لأبي العباس الدينوري: «بم عرفت الله؟» قال: «بأنِّي لا أعرفه.»

---

٣١ روى البيهقي ما يشبهه في كتاب الزهد. [٢/٣٥٧]

وقال ذو النون: ما عرف اللهَ من عرفه ولا وجده من اكْتَنَهَهُ ولا حقيقته أصاب من مثله وإنَّما أشكل ذلك على من أشكل من حيث ظنَّ أنَّ العلم بوجود الله وبوجود صفاته من العلم والقدرة والحياة والإرادة والكلام والسمع والبصر هو معرفة الله وإدراك حقيقته وليس كذلك قال: الصوفية يُفرّقون فرقًا عظيمًا بين ٥ العلم بالله وبين معرفة الله. والعلم بوجود القديم قريب وإليه يُشير قوله تعالى: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾. (سورة إبراهيم، ١٤/١٠)

فأمَّا إدراك حقيقة الذات والمعرفة الحقيقية فليس ذلك إلا لله وإليه تُشير الكلمات الواردة في ذلك كما ذكرته آنفا. وليس العلم بوجود صانع قديم لهذا العالم ممَّا يُشكل على أهل الحقائق بل ذلك عندهم أظهر من الشمس. وكيف يُتصور من ذوي الأبصار ١٠ منازعة في وجود الشمس! نعم يحتاج العُميان إلى ذلك حتى يحصُل لهم بطريق السمع ذلك. وكيف يُتصور الشك في وجود من هو الموجود الحق وبه يظهر ما سواه وعنه يوجد ولولاه لم يكن في الوجود موجود أصلا والبته؟!

ولو تُصور له عدم تعالى الله عن جواز العدم لبطل وجود كلِّ شيء. والعارفون لا ينظرون إلى الله من الأشياء بل ينظرون في الله إلى الأشياء، كما قال أبو بكر ١٥ الصدِّيق رضي الله عنه: «ما نظرت في شيء إلا ورأيت اللهَ قبله.» وليست هذه الرؤية من الرؤية الحاصلة في الآخرة في شيء بل الرؤية لفظ مشترك يُطلقها الفقهاء والصوفية لمعانٍ كثيرةٍ ولا يتعلَّق غرضنا بشرح ذلك.

وللصوفية كلمات يسمُّونها شطحًا وهو كلُّ عبارةٍ غريبةٍ تصدر عن قائلها في حالة السكر وشدَّة غليان الوجد، والإنسان في تلك الحال لا يقدر على إمساك ٢٠ نفسه كما قيل:

سَقَونِي وَقَالُوا لَا تُغَنِّ وَلَوْ سَقَوْا جِبَالَ شُرُورِي مَا سُقِيتُ لَغَنَّتِ[٣٢]

---

٣٢ لحسين بن منصور الحلاج.

وذلك كقول أبي يزيد: انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها فنظرت فاذا أنا هو. وقوله: اللهمَّ زيِّنِّي بوحدانيَّتِك وألبسني أنانيَّتِك وارفعني إلى أحديَّتِك حتى إذا رآني خلقك قالوا رأيناك فتكون أنت ذلك ولم أكن أنا هناك. وأمثال ذلك كثيرة وقد ورد في كلامهم ذلك منظومًا أيضًا كما قال بعضهم:

٥ بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِنِّيي يُنَازِعُنِي فَارْفَعْ بِلُطْفِكَ إِنِّيي مِنَ البَيْنِ

وإلى مثل ذلك يشير قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «لا يزال العبد يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به.»[٣٣] والمغلوب في هذه الحال إذا سُلب عنه عقلُه وتلاشى في إشراق سلطان أنوار الأزل لو قال: «سبحاني ما أعظم شاني.» وما يُشبه ذلك كما سبقتِ الإشارة إليه،

١٠ لم يؤاخذ به لأنَّ كلامَ العشَّاق يُطوى ولا يُروى كما يُروى أنَّ فاختة كان يُراودها زوجها عن نفسها وهي تمتنع عنه فقال لها: «إن أطعتني وإلا قلَّبتُ مُلك سليمان ظهرًا لبطن!» فبلَّغت الريح كلامه إلى سليمان فاستدعاه وقال له في ذلك فقال: «يا نبيَّ الله كلام العشَّاق لا يُحكى!» فاستحسن ذلك سليمان عليه السلام.

على أنَّ تلك الكلمات مبثوثة فيما بين فصول إن تُصفح ما قبلها وما بعدها عُلم

١٥ أنَّه لا مجال عليها للاعتراض ففي كلام الله تعالى وكلام رسوله ألفاظ متفرقة وردت في صفات الله عزَّ وجلَّ ولو أنَّها جُمعت وذُكرت دفعة واحدة كما فعلها أهل الضلال لكان لها من التلبيس والإيهام والإلغاز تأثير عظيم وإذا ذُكرت كلّ كلمة في موضعها اللائق بها ومع القرائن المُقتربة بها لم تُمجها الأسماع ولم تنبُ عنها الطباع.

---

٣٣ روى نحوه البخاري في صحيحه. [٢/٢٣٨٤]

فقد ورد في حق الله تعالى جده ألفاظ مجملة غاية الإجمال ومُحتملة للصواب والخطأ أظهر الاحتمال كالاستواء والنزول والغضب والرضى والمحبة والشوق والفرح والضحك والكراهية والتردد وكلفظ الصورة والوجه والعين واليد والإصبع والسمع والبصر كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٤٥) وكقوله هو الذي: ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ (سورة التوبة، ٩/١٠٤) وكقوله لموسى صلى الله عليه وسلام: «مرضت فلم تعدني وجعت فلم تطعمني حتى اضطرب موسى وقام وقعد وقال: الهي أوَ تمرض وتجوع؟ فقال: «مرض عبدي فلان وجاع عبدي فلان ولو أطعمت هذا أطعمت وعدت ذاك لوجدتني عندهما.»[٣٤] وهذا مطابق لما أوحاه إلى داود عليه السلام حيث قال: يا رب أين أطلبك؟ فقال: «عند المُنكسرة قلوبهم لأجلي.» وهذا كقوله تعالى في الكتاب المنزل على نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (سورة النحل، ١٦/١٢٨) وإنَّ الله مع الصادقين والصابرين ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٦٩) وهذه ألفاظ مجملة وقع بسببها خلق كثير في الضلال وألحد بها قوم وقالوا: لو كانت النبوّة حقا لما وصف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صانع العالم بأوصاف تدُلُّ على الجسمية فلأنَّ الجسمية تدلُّ على الحدث وهؤلاء إنَّما أتوا من قبل عُلومهم وخفَّة بضاعتهم في علوم العربية كما قيل:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَقِيمِ[٣٥]

وإلى هؤلاء يُشير القرآن حيث يقول: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ﴾ (سورة يونس، ١٠/٣٩) وعليهم يُنبّه حيث يقول: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ (سورة الأحقاف، ٤٦/١١) والعلماء الراسخون في علمهم لا يخفى عليهم تأويل هذه الألفاظ بل هي أظهر من الشمس عندهم وأكثر الخلقِ تاهوا فيها وتحيّروا في معانيها:

٣٤ روى نحوه مسلم في صحيحه. [١٩٩٠]
٣٥ البيت للمتنبي.

لَا يَكشِفُ الغَمَّاءَ إِلَا ابْنَ حُرَّةٍ يَرَى غَمَرَاتِ المَوْتِ ثُمَّ يَزُوُرهَا

ولو كان الوصول إلى معرفة تأويل هذه الألفاظ المُجملة سهلا لما خصَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حبرَ الأمة عبد الله بن عباس في دعائه بقوله: «اللهمَّ فقّهه في الدين وعلِّمه التأويل!»[٣٦] وهي على صُعوبتها عند العموم يسهلُ دركُها على الخصوص كما قيل:

أَنَامُ مِلءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسَهَرُ الخَلْقُ جَرَاهَا ويَخْتَصِمُ[٣٧]

ثمَّ هذه الألفاظ المجملة المبثوثة في القرآن والحديث لو جمعها ملحد واستفتى إمامًا وقال: ما تقول فيمن يدَّعي النبوَّة ويزعم أنَّ الله يجوع ويمرض ويغضب ويفرح ويضحك ويحبُّ ويبغض ويستقرض من الخلق ويأخذ الصدقة وينزل من علو إلى سفل وصورته صورة الآدميين وله وجه وسمع وبصر ويد وإصبع؟ فربّما غفل الإمام المستفتى عن مقصود هذا الملحد وأنَّه يُسرّ حسوا في الارتغاء فأطلق القول بأنَّ من قال ذلك فلا خبر عنده من حقيقة الحقّ وأنّه مُبطل في دعواه.

ولم يكن لقوله هذا سبب إلا أنَّ الملحد جمع بين كلمات كان من حقِّها أن تكون متفرقة وعرّاها عن قرائن كان الواجب أن لا تذكر تلك الكلمات إلا مع تلك القرائن كيلا تكون موهمة فإنَّ من القرائن التي تدفع احتمال الخطأ في هذه الألفاظ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (سورة الشورى، ٤٢/١١) وقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ﴾ (سورة النحل، ١٦/١٧) وإذا كان لمُجرد الجمع هذا التأثير فما الظنّ إذا بدّل لفظا مكان لفظ فيتبدَّل النزول بالحركة والاستواء بالاستقرار وذكر الكفّ والساعد مكان اليد والأذن والصِماخ مكان السمع أو اللحم والعظم مكان الوجه. أو البدن مكان النفس.

---

٣٦ رواه الحاكم في مستدركه. [٣/٦١٥]
٣٧ البيت للمتنبي.

فإنَّ لفظ النزول والاستواء واليد والوجه وسائر الألفاظ المجملة إذا ذُكرت على ما وردت في القرآن والحديث من غير تغيير ولا تبديلَ ولا جمعَ ولا تفريقَ ولا زيادةَ ولا نقصانَ ولا تجريدَ عن الكلمات التي قبلها وبعدها ولا تعريةَ عن القرائن التي اقترنت بها زال عنها الإيهام وضعف فيها الإبهام.

٥ وما أبعد عن التحصيل من لا يدرك الفرق بين جمع هذه الكلمات في ورقة واحدة وذكرها دفعة واحدة وبين ذكرها فيما بين كلمات لعلّها تزيد على ألف ألف كلمة! وما ليَ استبعُد من علماء العصر إنكارهم عليّ.

ولم يزل أكابر العلماء في كل عصر محسودين وبأنواع المحن مقصودين كمالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وسفيان الثوري رضوان الله عليهم أجمعين.

١٠ وكذلك كان مشايخ الصوفية كالجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي وذي النون المصري وسهل بن عبد الله التستري وأبي الحسن النوري وسمنون المحبّ وقد صُنّف في محن الأخيار الكثير ولولا السآمة ولذكرت من ذلك طُرفا ولكنَّ الوقت لم يحتمل التطويل فأعرضت عن ذلك وتمثلت بما قيل:

تَعَرَّضَ البَرقُ نَجْدِيًّا فَقُلْت لَهُ يا أَيُّهَا البَرْقُ إِنّي عَنْك مَشْغُولُ

١٥ ولا غرو أن أُحسَد وقد صنّفت وانا يافع ولأخلاف العشرين فما فوقها راضع كتبا يعجُزُ أبناء الخمسين والستين عن تفهُّمها فضلا عن تأليفها وتصنيفها:

إِنْ يَحْسُدُونِي فَإِنّي غَيَر لائِمِهِمْ قَبْلِي مِنَ النَّاسِ أَهْلُ الفَضْلِ قَدْ حُسِدُوا

ومن أراد أن يقف على صحة ما ذكرت في جميع ما أوردت وأصدرت طلب مُصنّفاتي ونظر فيها وتصفّحها يستوعب به معانيها ويستوفيها كرسالتي الموسومة

بـقـري العـاشي إلى معرفـة العـوران والأعـاشي وكرسـالتي العلائيـة والمفتَلَـذ مـن التصريـف وهمـا مـن مختصرات التصانيف وكالرسالة الملقّبة بـأمالي الاشـتياق في ليالي الفراق وكالكتاب المسـمَّى منيـة الحيسـوب وهـو فـي علـم الحسـاب الهندي وكالرسالة التي سـمَّيتها غايـة البحث عـن معنـى البعـث وكالأخـرى المسـماة صولـة البـازل الأمـون عـلى ابـن اللبـون وكالكتـاب الـذي لقبّته

٥ زبـدة الحقائـق وهـذا آخـر مـا صنّفتـه مـن الكتـب وكنـت إذ ذاك مـن أبنـاء أربـع وعشـرين سـنة وفي هـذه السـنة التي ابتلاني فيهـا التقدير بهـذه الفتنة بلغت ثلاثا وثلاثين وهي الأشد التـي ذكرهـا الله عـزَّ وجـلَّ فـي قولـه تعالـى: ﴿حتـى إذا بلـغ أشـده﴾ (سـورة الأحقـاف، ١٥/٤٦) وإنَّمـا يستوي الرجـل عند بلـوغ الأربعين. ومن مُولّدات خاطري ألفُ بيت في النسيب سمَحَ بها الخاطِر في عشرة أيام وهي مجموعة في صحيفة تُعرف بـنزهة العُشَّـاق

١٠ ونهـزة المشـتاق وهـذه الأرجوزة منهـا:

وَغَادَةٍ مِنْ سَلْفِي مَعْدِ	تُعْزَى إِلى خَيْرِ أَبٍ وَجَدِ
يَكتُفُهَا جَحَاجِحٌ كَالأُسْدِ	تَغْزُو العِدَى عَلى جِيادٍ جُرْدِ
بِكُلِّ صَمْصَامٍ صَقِيلِ الحَدِّ	وذَابِلٍ مِنَ الرِمَاحِ المُلدِ
زَارَتْ وَصَحْبِي هُجَّعٌ بِنَجْدِ	فِي خَفَرَاتٍ مِن غَوَانِي سَعْدِ
١٥ وَطِئْنَ هَامَاتِ الرُبَى وَالوَهْدِ	إِلى رَحِيبِ البَاعِ وَارَى الزَنْدِ
يَلْبَسْنَ ثَوْبَيْ كَرَمٍ وَمَجْدِ	فَبِتْنَ فِي عَيْشٍ لَذِيذٍ رَغْدِ
وبِتُّ جَذْلانَ وَهِنْدُ عِنْدِي	أَلْثَامُهَا مُتَّشِحاً بِالزِنْدِ
وَاجَتْنِي بِاللَثَمِ وَردَ الخَدِّ	

ولقد خُضت في تصنيف كتابين مبسوطين كانت نيتي أن يكون كل منهما مُشتملا على عشرة مُجلّدات أحدُهما في علوم الأدب وكنت قد وسمته بالمدخل إلى العربية ورياضة علومها الأدبية والآخر في تفسير حقائق القرآن ثمَّ عاقتني مُهمّات الدين والإقبال على ما هو فرض عيني عن إتمام الكتابين. ومن تعرف حقيقة ٥ أحوالي ممن لا يمنعه الجهل والحسد وقلة الإنصاف عرف مصداق هذه الدعاوي التي أعجز في هذه الحال مع ما أنا عليه من ضيق الصدر وتشتُت الأمر وتشعّب الخاطر وتوزّع الفكر عن إقامة برهان عليها فليصرف من أراد ذلك عنايته إليها:

سائِلْ قُضَاعَةَ: هَلْ وَفّيتُ بِذِمَّةٍ أَمْ هَلْ أَضَعْتُ الأَمْرَ حِينَ وُلِيتُ

فَلَرُبَّ كَبْشِ كَتِيبَةٍ أَجْرَرْتُهُ رُمْحِي وَنَارٌ لِلحُرُوبِ صَلِيتُ

١٠ وَلَرُبَّ أَبْطَالٍ لَقِيتُ بِمِثْلِهِمْ فَسَقِيتُهُمْ كَأْسَ الرَّدَى وَسُقِيتُ

وأَخٍ يُجِيبُ المُسْتَضِيفَ إِذَا دَعَا وَالخَيْلُ يَعْثُرُ فِي العَجَاجِ رُزِيتُ

فَلأَطْلُبَنَّ المَجْدَ غَيْرَ مُقَصِّرٍ إِنْ مِتُّ مِتُّ وَإِنْ حُيِيتُ حُيِيتُ

وممّا لا بدَّ من ذكره في هذه اللمعة حقيقة مذهب السلف فإنَّ الحاجة ماسة إليه وأنا أذكر ذلك في ثلاثة فصول لأنّ أصول الإيمان هو الإيمان بالله وبرسوله ١٥ وباليوم الآخر وانا أذكر في كل أصل فصلا حامدا لله ومُصليا على المصطفى محمد وعلى سائر أنبيائه والله يعصم من الزلل بمنه وفضله.

الفصل الأول

في الإيمان بالله وصفاته

اعلمْ أنَّ الله تعالى موجود لا يُتصوَّر عليه العدم واحد لا يتصور فيه التجزي فهو المَلِك الكريم الرحمن الرحيم ذو الجلال والإكرام والأسماء العظام. قلوب الخلق بيده ونواصي العالمين إليه. لا يشغله شأن عن شأن وقد خضع لكبريائه كلُّ سلطان. لا شريك في وحدانيته ولا مثل له في فردانيته ولا ضِدَّ له في صمديته ولا نِدَّ له في أحديته.

له الملك والملكوت وتحت سلطانه العزَّة والجبروت. أوَّل كلِّ شيءٍ، وقبل كلِّ شيءٍ، وهو الباقي بعد فناء كلِّ شيءٍ فهو الحميد المجيد والفعَّال لما يريد. علا في دنوِّه ودنا في علوِّه، وظهر في بطونه وبطن في ظهوره، واحتجب عن الخلائق لشدَّة إشراق نوره. وهو الجبَّار القهَّار والقيُّوم القادر والآخر في أوَّليته والأوَّل في آخريته.

أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا ووسع أهل السماء والأرض رحمة وعلمًا. قد فاض في الملك والملكوت خيره وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها غيره.

وله النعم المتظاهرة والمنح المتواترة والفضل الجزيل والصنع الجميل والعزُّ الرفيع والفِعال البديع والصفح الكريم والإحسان القديم والكرم الفاخر والملك الظاهر والعز الباذخ والسلطان الشامخ.

خلق الأرض والسماء وصرَّف المقادير فيها كيف يشاء فقدَّرها ورتَّبها أحسن تقدير وترتيب. وكم له في كل ذرة من سر عجيب! يُسيء إليه العباد وهو يزداد إحسانا إليهم ويتبغضون بالمعاصي ويأبى إلا تعطُّفًا عليهم. لا تحصى نعمه ولا تُعدُّ أياديه ولا يُطاق النظر إلى كمال إشراقه ولا إلى مباديه.

كلُّ شيءٍ منقاد لعظمته والأرضون والسموات في قبضته وقدرته.

قديمٌ لا أوَّلَ لقدمه، باقٍ لا آخرَ لبقائه، دائم الوجود من غير زوال كامل الذات على كلِّ حال. الموصوف بصفات الكمال المنعوت بنعوت الجلال والجمال ذو الأسماء الحسنى والصفات العُلى لا يماثل الأجسام ولا يقبل الانقسام. أزلي الذات، سرمدي الصفات. كان قبل أنْ خلَق الأرضين والسموات وهو الآن على ما كان من أوصافه التامَّات ونعوته الكاملات. ٥

لا يشبه الموجودات في ذاته ولا في صفاته بل الموجودات كلّها قطرةٌ من بحر قُدرته وآيةٌ من آياته لا يعزُبُ عن علمه الأزلي مثقال ذرّة كالهباء بل علمه بما تحت أرضه كعلمه بما فوق السماء والموجودات كلّها في سعة علمه كقطرة في بحار ورملة في قفار ولا تخرُج عن إرادته نظرة ولا عن مشيئته خطرة.

١٠ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وكلُّ حادث من الكائنات يوجد في أجله المعلوم كما أراده في الأزل وعلِمه في القديم من غير زيادة ونقصان ولا تقدُّم ولا تأخُّر.

وهو السميع العليم الذي لا يعزُب عن سمعه مسموع ولا عن بصره مبصر بل سواء عنده من جهر بالقول وأسرَّه وما أضمره القلب وأظهره. أسرار الضمائر عنده علانية وأفهام الخلق دون إدراك كمال صفاته وإنية.

١٥ وهو المتكلِّم بالكلام القديم القائم بذاته المنزَّه عن أن يشبه كلام المخلوقين. وجميع ما قاله من المحكم المتشابه على ما قاله وكما أراده. أمره ونهيُهُ حقّ ووعده ووعيده صدق نؤمن به إيمان تحقيق ويقين ونُصدِّق به تصديقًا لا يتخالجنا فيه ريب.

جلَّ وجهُه وتعالى جدُّه من حي لا يُعارضه موت وباقٍ لا يلحقه فناء.

أظهر الموجودات بقدرته اختراعا واستبدّ بخلقها إيجادا وإبداعا فسبحانه فسبحانه، ما ٢٠ أعظم شانه وأظهر بُرهانه وأوضح سلطانه وأجزل إحسانه وأتمّ امتنانه لا تهتدي القلوب لوصف بهائه وعظمته ولا يطمع طامع في الإحاطة بكماله إلا رَدَّته سبحانه حضرته.

فما أرفَعَه في جلاله وأبهاه في جماله وأعظمه في كبريائه وأظهره في إشراق ضيائه وأثبته في ربوبيته وأدومه في كينونيّته وأعزّه في وحدانيته وأجلّه في صمدانيّته وأقدمه في أوَّليَّته وأسبقه في أزليَّته. هو الوراث لأهل أرضه وسمائه وهو الحيُّ حين لا حيَّ في ديمومة مُلكه وبقائه. عزَّ أنْ يَصِف كمال ذاته لسان ٥ أو يفي بِكُنه صفاته العُلى بيان.

الفصل الثاني

في الإيمان بالنبوَّة

اعلمْ أنَّ اللهَ جلَّ جلاله بعث الأنبياءَ مُبَشِّرين ومُنذرين وأرسل محمَّدًا إلى كافَّة الخلق؛ العرب منهم والعجم والأسود والأحمر وأيَّده بالمعجزات الظاهرة ١٠ والآيات الزاهرة فنسَخَ بِشَرعه من الشرائع ما شاء وقرَّر منها ما شاء وهو خاتم الأنبياء وسيِّد البشر:

هَيْهَاتَ أَنْ يَلِدَ الزَمَانُ نَظِيرَهُ   إِنَّ الزَمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلُ

والنبوَّة عبارة عن كمالات تحصل للأنبياء ولا يُتصوَّر الوصول إليها ببضاعة العقول. وليس للعقل إلا أنْ يُصدِّق بذلك تصديقًا يستفيده من طريق النظر في ١٥ البراهين الواضحة والدلائل البيِّنة. فأمَّا أنْ يصلَ عاقلٌ ببضاعة عقله إلى تلك الكمالات فكلا وحاشى. وطور النبوَّة وراءَ طور الولاية، ونهاية الأولياء هي بداية الأنبياء وطور الولاية وراءَ طور العقل ونهايات العقلاء بدايات الأولياء. ومن ذهب من الفلاسفة وظنَّ أنَّ النبيَّ عبارة عن شخص بلغ أقصى درجات العقل وتصرَّف ببضاعة عقله في الأوامر والنواهي وزعم أنَّهَا أوضاع وضعها النبي ٢٠ وسوَّاها على الحكمة فقد انخلع عن ربقة الإسلام وانخرط في سلك أهل الغباوة بل لم ينطق عن الهوى وكان كلامه وحيا يوحى.

والإمام الحقّ بعد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أبو بكر ثمَّ عمر ثمَّ عثمان ثمَّ عليّ رضي الله عنهم أجمعين علمنا ذلك بالإجماع القاطع الثابت بطريق التواتر. وقد حبّرت في عُنفوان الصِبى قصيدة أحلى من المني في الفؤاد وألذّ من وصال الأحبّة بعد طول البعاد مدحت بها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين بل مدحت نفسي وشعري حين تصدّيت لذلك وهي تشتمل على سبعين بيتًا وهذه الأبيات منها:

سَأُزْجِي إِلَيهِ يَعْمُلَاتٍ سِوَاهُمَا　　طَلَائِحَ أَنْضَاهَا التَّوَقُّص وَالوَخْدَ

وَأُكْحِلُ أَجْفَانَ الوِجَاءِ بِتُرْبَةٍ　　ثَوى جِسْمَهُ فِيهَا فَأَجْفَانُهُ رُمْدُ

وَإِنْ لَمْ تُبْلغَنِي إِليهِ رَكَائِبِي　　فَلا سِرُّهَا عُشْبٌ وَلا ضَمُّهَا وِردُ

الفصل الثالث

في الإيمان بالآخرة

اعلمْ أنَّ القبر أول منزل من منازل وقد ورد الإخبار بسؤال مُنكر ونكير ولا نتصرَّف في ذلك ببضاعة عقولنا الضعيفة. فأكثر أحوال الآخرة إنَّما يُدرك بنور النبوَّة وقليل منها يدرِكه أفراد الأولياء وآحاد الراسخين من العلماء. والقبر إما روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النيران وعدم رؤيتنا للحُفرة والروضة ولمنكر ونكير لا يدُّل على عدم رؤية الميت إذ نحن في عالم الملك والشهادة والميت في عالم الملكوت والغيب.

وقد قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «إنَّما هما ملكان فظَّان غليظان أزرقان يبحثان الأرض بأنيابهما ويطآن شعورهما وأصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف.»[٣٨] وعند ذلك قال عمر بن الخطاب: «يا رسول الله أفيكون معي عقلي هذا؟» فقال: نعم قال: إذا أكفيها.

٣٨ أورده السيوطي في التفسير. [٥/٣٦]

ثمَّ يُبعثَر من في القبور ويُحصِّل ما في الصدور وتُرَدُّ الأرواحُ إلى الأجساد والناس يمشون حُفاة عُراة ويُحشرون على صعيد القيامة أشتاتًا في يومٍ كان مقداره خمسين ألفَ سنةٍ. وليس للعقل إلا التصديقَ بهذه الأمور الممكنة فأمَّا أن يدرك ذلك ببضاعة فلا بل إذا أدرك العقلُ صدقَ الأنبياء وأنَّه لا يُتصّور عليهم الكذب كان مضطرا في تصديقهم بجميع ما أخبروا عنه ومن ذلك أحوال الآخرة. ٥

وكلُّ ذلك حقٌّ كالميزان وهو الذي يُعرِّف العباد مقادير أعالهم الحسنات منها والسيِّئات. وكذا الصراط وهو جسر ممدود على متن جهنَّم كالسيف في حِدّته والشعر في دِقَّته والناس متفاوتون عليه: فمِن طائر يطير ومن سائر يسير وحاب يحبو وهاو يهوى به إلى النار في مكان سحيق.

١٠ وكذا الجنَّة والنار وما فيها من أنواع الآلام وأشدُّها الخلود في النار مع الحِجاب، وأقسام اللذات وأعلاها النظر إلى ربِّ العالمين. وجميع ما ورد في القرآن ونطقت به الأخبار الصِحاح فهو حقٌّ وصِدقٌ نؤمن به إيمانًا لا نتمارى فيه. وكذا الحوض المورود الذي من شرب منه شربةً لم يظمأ بعدها أبدًا، أحلى من العسل، أشدُّ بياضًا من اللبن. وكذلك الشفاعة فهي حقٌّ يشفع الأنبياء ثمَّ الأولياء ثمَّ العلماء ثمَّ الشهداء ثمَّ عموم المؤمنين ولكلِّ مؤمنٍ شفاعة كما قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم هذا هو الاعتقاد الحقُّ الذي أجمع عليه السلف الصالحون والأئمة المنقرضون ولنا فيهم أسوةٌ حسنةٌ وقدوةٌ مرضيةٌ. وقد قلتُ في جمل أصول الإيمان أبياتًا وهي: ١٥

تَيَقَّنْتُ بَالبُرْهَانِ مِنْ طُرُقِ العَقْلِ ... وُجُودَ قَدِيمٍ لَا كَدَعْوى إلى جَهْلِ

٢٠ سَمَيعٌ بَصِيرٌ عَالِمٌ مُتَكَلِّمٌ ... مُرِيدٌ قَدِيرٌ ذِيْ حَيَاةٍ وَذِي فَضْلِ

يَقُوُمُ بِهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ العُلَى ... وَفِي أَرْضِهِ السُفْلَى مِنَ الحَزْنِ والسَّهْلِ

وَلَيْسَ لَنَا مِنْ خَالِقٍ وَمُصَوِّرٍ سِوَى الوَاحِدِ القَيُّومِ فِي العُلْوِ وَالسُّفْلِ

وَلا رَيْبَ لِي فِي أَنَّهُ مُهلِكُ الوَرَى وَمُحيِيهِمُ فَهْوَ الْمُجَدِّدُ والمبْلِي

وأنَّ رَسُولَ اللهِ أَفْضَلُ خَلْقِهِ وَقَوْلِيَ ذُو فَضلٍ وَمَا هُوَ بِالهَزْلِ

٥ وَأَنَّ الذَي أَدَّى إِلَيْنَا مُحَمَّدٌ كَمَا قَالَهُ حَقٌّ مِنَ الفَرْعِ وَالأَصْلِ

وَأَنَّ الذَي بَعْدَ المَمَاتِ جَمِيعُهُ عَلَى مَا حَكَاهُ المصْطَفَى خَاتَمُ الرُسْلِ

فَهَذَا اعْتِقَادِي وَاعْتِقَادُ مَشَايخِي وأَسْلَافِي المَاضِينَ وَاللهُ مِنْ قَبْلِي

فَهَلْ بَيْنَ شَرْقِ الأَرْضِ وَالغَرْبِ مُسْلِمٌ يُخَالِفُ فِيهِ مِنْ ذَوِي العَقْلِ وَالنَّقْلِ؟

وَكَمْ زَنَّ مَنْ فِي بُرْدَتِي خُصَمَاؤُهُ بِعَوْرَاءَ مِنْ قَوْلٍ وَشَنْعَاءَ مِنْ فِعْلِ

١٠ فَمَاليَ وَرَبُّ الرَاقِصَاتِ إِلي مِنَى سِوَى دَعْوَةٍ أَدْعُو بِهَا مِنَ اللهِ مِنْ شُغْلِ

إِلَهِي طَهِّرْ وَجْهَ أَرْضِكَ مِنْهُمُ وَإِنْ صَحَّ مَا قَالُوا فَطَهِّرْهُ مِنْ مِثْلِي.

والأولى أن أقتصر على هذا القدر. وإن لا أطول الكلام مع ما أنا فيه من ضيق الصدر وأنا أشكو إلى الله أقوامًا أهدروا حقوقَ العلم، واعتمدوا غيرَ المعروف من سجايا أولي الحلم، وسعوا بي إلى السلطان، واخترعوا عليَّ عظيمَ البُهتان. ولم ١٥ يَقم بواجب حقي علماءُ الفِرق ولا ذوو المرقَّعات والخِرق وأسلموني للخصوم أُصادقهم وأعايدهم فما أجدرهم بأن يُنشد قول الشاعر فيهم:

مَا هَذِهِ القَرْبَى التِّي لَا تُتَّقَى مَا هَذِهِ الرّحْمُ الذِي لا تُرْحَمُ

والله يعلم أنّي لم أزلْ أُعِينهم على مطالبهم، وأقوم بمقاصدهم وتحصيل مآربهم، وأنصُرُهم باليد واللسان، وأجازي مُسيئهم بالإحسان، وأجبُرُ كسيرهم، وأفكُّ أسيرهم، وأُصلح فاسدهم، وأدفع عنهم حاسدَهم، وأحقِّق ظنونهم وآمالهم، وأُعلِّم ممَّا علَّمني الله جُهَّالَهم، وأملأ أسماعَهم غرائبَ الكلم وقلوبَهم ٥ لطائفَ الحِكم.

لا ذَنْبَ لِي غَيْرَ مَا سَيَّرْتُ مِنْ غُرَرٍ   شَرْقاً وَغَرْباً وَمَا أَحْكَمْتُ مِنْ عُقَدِ

فالله حسيبي وحسيبُهم يومَ لا ينطقون ولا يُؤذن لهم فيعتذّرون.

فالحمدُ لله ربِّ العالمين على نعمه المتظاهرة والصلاة على محمَّد وعترته الطاهرة. وحسبُنا الله ونعم الوكيل.